وزارة الثقافة



رحلات في ديار الشام

أحمد سامح الخالدي

برنامج الحفاظ على الرواية

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

رحلات في ديار الشَّام

تأليف: أحمد سامح الخالدي

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٦
عن المكتبة العصرية - يافا

وزارة الثقافة الفلسطينية

سلسلة الموروث الثقافي

اسم المؤلف: أحمد سامح الخالدي

اسم الكتاب: رحلات في ديار الشَّام

الطبعة الأولى: ١٩٤٦ عن المكتبة العصرية - يافا

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري

مراجعة وتدقيق: حنين خالد عِناية

صف وتنضيد: شادية الخطيب

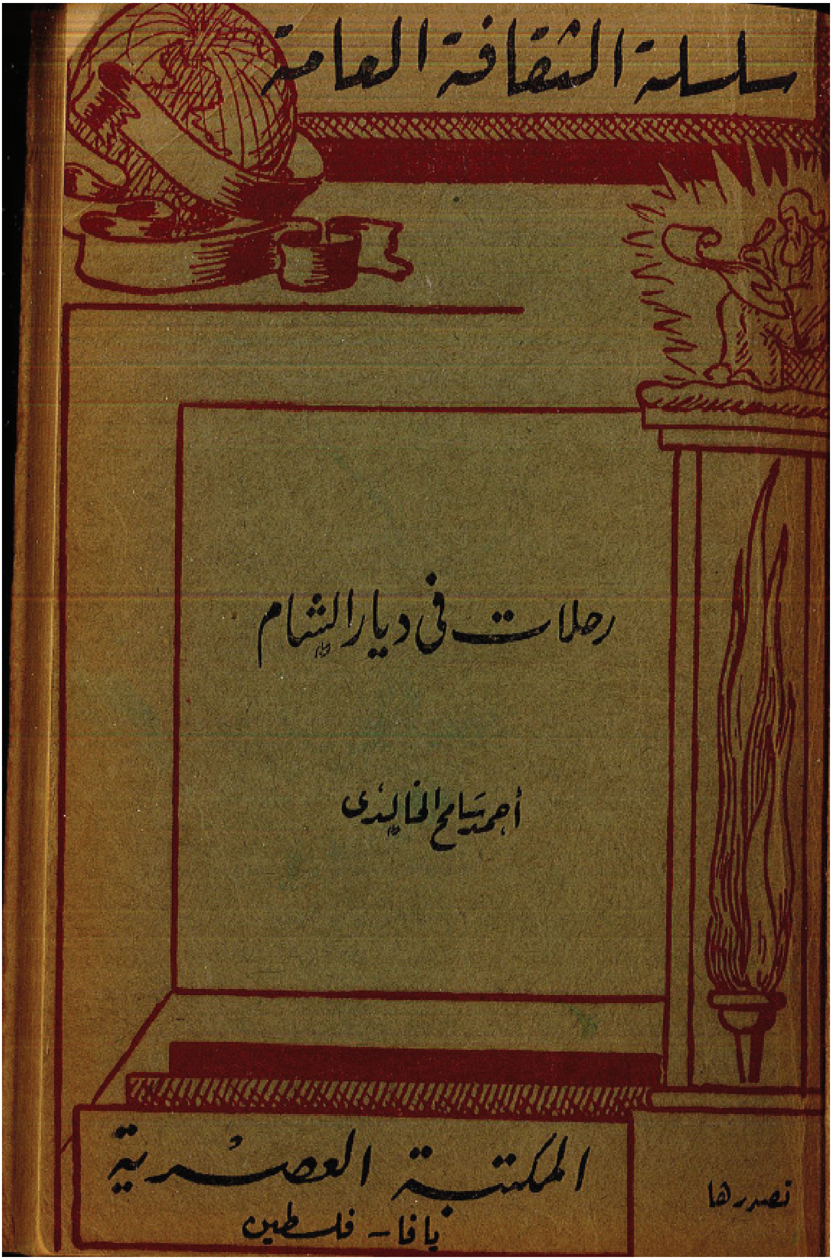
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

صورة الغلاف: تصوير كريمة عبود

فلسطين

www.moc.pna.ps

رحلات في ديار الشَّام



الغلاف الأصلي للكتاب

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارضاً معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. ان هذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الآخرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمشاركة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بموروثنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا، ونريد ان نحافظ عليه، ونريد للاجيال القادمة ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٣٠ / ٣ / ٢٠٢٠



المؤلِّف أحمد سامح الخالدي

كلمة موجزة

من محاسن الصدف أن يتميز النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري (السابع عشر) بأربع رحلات قام بالأولى منها الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي في سنة ١١٠١ هـ - ١٦٨٩م. وبالثانية والثالثة الشيخ مصطفى البكري الصديقي الدمشقي في ١١٢٢هـ - ١٧١٠م و ١١٢٦هـ - ١٧١٤م وبالرابعة الشيخ مصطفى اسعد الدمياطي سنة ١١٤٣ هـ و ١٧٣٠م.

ولا ينتظر القارئ أن يقرأ رحلات كرحلة المقدسي أو ابن جبير أو ابن بطوطة لأن رحلاتنا هذه انحصر مجالها في شبه جزيرة سيناء وفلسطين ودمشق وقسم من جبل لبنان وقبرص وهي ترمي ضوءا على حالة البلاد والأمن في هذا القرن الغامض وعلى بعض رجاله ومشاهده ومؤسساته.

وعبد الغني النابلسي قطب مشهور وهو استاذ مصطفى البكري الصديقي الذي سكن القدس مدة وتزوج فيها وألف فيها كثيرا من كتبه أكثرها في موضوع التصوف كما أن البكري هو أستاذ الدمياطي فالرحلات من هذه النَّاحية حلقة واحدة مرتبطة الأطراف تتمم الواحدة الاخرى.

وقد طبعت الأولى في مصر سنة ١٩٠٢ أما الثانية والثالثة والرابعة فلا تزال مخطوطة، وسننشر رحلة الدمياطي كاملة في القريب.

وتشمل الأولى وصفا لرحلة من دمشق إلى بيت المقدس وما حواليه ذهابا وإيابا كما تشمل الثانية والثالثة سفرة من دمشق الى بيت المقدس وما حواليه ووصفا للساحل الفلسطيني. وكان الوزير رجب باشا واليا مديرا في القدس يوم زارها البكري وقد نشأت بينهما صداقة.

أمـا الرابعـة فابتـدأت مـن دميـاط واخـترق الدمياطـي شـبه جزيـرة سـيناء فغـزة فالرملـة فيافـا فالقـدس ومـا حواليهـا ثـم رجوعـا إلى دمشـق فصيـدا فقـبرص.

ولا يخفـى أن بـلاد المـشرق (فلسـطين والشـام والعـراق والحجـاز) كانـت محـط الرحـال طيلـة القـرون المختلفـة. فمـن الرحالـة العـرب او المسـلمين الذيـن سـجلوا رحلاتهـم المقـدسي البشـاري (٣٧٥ هــ) ونـاصري خـسرو (٤٣٨ ه) وابـن أبي بكـر العـربي (٤٨٥ هــ) والهـروي (٥٦٩ هــ) وابـن جبـير (٥٨١ هــ) وعبـد اللطيـف البغـدادي الـذي زار مـصر (٥٩٥ ه و٥٩٨ هــ) ودخـل القـدس للقـاء صـلاح الديـن بعـد الهدنـة وابـن بطوطـة (٧٢٥هـ) وأوليـا جلبـي (١٠٥٩ هــ المـرة الاولى و١٠٨١ هــ المـرة الثانيـة).

وكانـت فلسـطين في القـرن الثـاني عـشر الهجـري تحـت الحكـم العثـماني وكان الأتـراك العثمانيـون بعـد مـا فتحـوا سـوريا في معركـة مـرج دابـق شـمالي حلـب (٩٢٢ ه - ١٥١٧ م) فقضـوا عـلى دولـة المماليـك الشراكسـة، وقتـل فيهـا قانصـوه الغـوري آخـر ملوكهـم، قسـموا ديـار الشـام الى ولايـات وجعلـوا عـلى رأس كل ولايـة واليـاً او كافـلا مـن قبلهـم، منهـا ولايـة حلـب، ودمشـق وطرابلـس الشـام، ثـم صيـدا وغـزة. وكانـت القـدس تتبـع غـزة احيانـاً ودمشـق أحيانـا أخـرى، امـا البـلاد فكانـت تحكـم بالفعـل حكـما اقطاعيـاً، كحكـم المعنيـين والشـهابيين في لبنـان ومنطقـة صفـد، وآل طربـاي الحارثيـين في منطقـة اللجـون بمـا فيهـا جنـين، إلـخ ... إلـخ.

أمـا المـدن فكانـت اكثرهـا مسـورة وكان في كل منهـا حاكـم أو وال يعينـه والي الشـام أو حاكـم غـزة وكان بـين أعيـان المـدن وشـيوخ الـبر روابـط تقـوم بالأكـثر عـلى أسـاس الحزبـين الأساسـيين في البـلاد وهـما الحـزب القيـسي والحـزب اليمنـي. وشـعار الأول اللـون الأحمـر والثـاني اللـون الأبيـض.

والمتتبـع لجميـع هـذه الرحـل، يـرى أن الأمـن لم يكـن مسـتتبا خـارج المـدن الكـبرى، وكان شـيوخنا النابلـسي، والبكـري، والدمياطـي، يتغلبـون عـلى

رعبهم بقراءة الأوراد، ومع هذا فقد كان السفر بين دمشق وبيت المقدس منتظما، فيسافرون جماعات في قوافل او ركب يرافقهم غفر، بل كان البريد ينقل مع هذه القوافل حتى ان الشيخ عبد الغني استلم في رجوعه الى دمشق وهو في نابلس ثلاث رسائل. على أن الحكام كانوا يضربون بيد من حديد على قطاع الطرق بل كان الركب يصطدم احياناً بقطاع الطرق كما حدث مع الشيخ البكري فيتغلب عليه. أو كان المسافرون إذا علموا بكمين غيروا الطريق أو قد ينحرفون عن الجادة العامة تحاشياً لدفع «المكس» أو «الخاوة» أو «الخفر» او يأخذون مرسوماً من شيوخ الإقطاع للانتقال من منطقة إلى أخرى.

ومع أن الحكم كان إقطاعياً وكان الأمراء ينصرفون بالأكثر إلى المنافسات، وكان حكم الدولة اسميا، إلا أن البلاد كانت عامرة في نواح كثيرة بالرغم مما انتابها من ويلات الحروب المتتالية. فقد كانت نابلس وجبالها تشتهر بزيتونها وأترجها وخروبها والخليل بكرومها وعنبها وبيت لحم بسبحها ويافا ببساتينها اليانعة والرملة بأشجارها الباسقة الخ. وكانت الحركة العلمية متمركزة في المسجد الاقصى ببيت المقدس وما بقي حواليه عامراً من المدارس والمعاهد سواء ما انشئ في عهد المماليك كالمدرسة السلطانية والنحوية والزاوية الأدهمية والمدرسة القرقشندية والمدرسة الغادرية او ما انشئ في عهد الدولة العثمانية كالزاوية المولوية. وكانت تكية خاصكي سلطان مركزاً لتوزيع الطعام على الفقراء كما لا تزال حتى الآن. وقد نزل الشيخ عبد الغني نفسه في المدرسة السلطانية في القدس. وقد وصفها لنا وصفاً دقيقاً. وكان رب الخروب «دبس الخروب» يصنع في نابلس وجبالها فقد جاء ذلك عرضاً في رحلة الشيخ عبد الغني كما ذكر ذلك ابن بطوطة قال:

«ومدينة نابلس هي مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتوناً ومنها يحمل الزيت إلى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب إلى دمشق وغيرها. وكيفية عملها ان يطبخ

الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا إلى مصر والشام، وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب».

ثم إن السالك غرب نابلس مثلا متجها إلى قلقيلية في محاذاة وادي عزون لا يزال يشاهد أشجار الخروب على الجبال والمنحدرات وقد تلف القسم الأكبر منها من رعي الماعز واختلال الأمن وتوالي الحروب والمنازعات في القرون المتأخرة ويقال مثل ذلك في قضاء جنين إلخ.

ويا حبذا لو أن النابلسي والبكري والدمياطي وصفوا لنا البلاد وصفا موضوعيا أكثر مما فعلوا. ولكن هؤلاء الثلاثة هم من شيوخ التصوف ومن البدهي أن يقصدوا من سياحتهم الزيارة والتبرك، وإذن فقد انصرف همهم الأول إلى زيارات الأماكن المقدسة وقبور الانبياء والصحابة والتَّابعين والأقطاب، حتَّى أنّهم تجنّبوا بالفعل الاتِّصال بالنّاس والتَّحكُّك بهم إلَّا رجال الطُّرق وما أشبه. فكانوا يقضون أكثر أوقاتهم في التعبُّد وقراءة الأوراد والاجتماع بالأقطاب والمتصوِّفين، فقد كان هؤلاء هم قطب الرحى في ذلك القرن وما بعده.

رحلة الشّيخ
عبد الغني النَّابلسي الدّمشقي

ابتـدأت رحلـة الشـيخ عبـد الغنـي النابلـسي التـي أسـماها «الحـضرة الانسـية في الرحلـة القدسـية» في اليـوم السـابع عـشر مـن جـمادي الثانيـة سـنة ١١٠١ هــ - ١٦٨٩ م واسـتغرقت خمسـة وأربعـين يومـا ذهابـا وإيابـا وإقامـة في القـدس والخليـل ونابلـس. وانتهـت في يـوم الأربعـاء أول شـهر شـعبان المبـارك ١١٠١ هــ - ١٦٨٩ م.

ومكـث الشـيخ في سـفرته مـن دمشـق إلى القـدس سـتة عـشر يومـا منهـا خمسـة أيـام قضاهـا في نابلـس. وهـذه المسـافة تقطـع الآن بثمان سـاعات في السـيارة وسـاعة وربـع بالطيـارة. وخـرج مـن دمشـق بعـد أن زار المقامـات فمـر عـلى جبـل قاسـيون فالمـزة لزيـارة قـبر دحيـة الكلبـي الصحـابي ثـم توجـه إلى داريـا فـزار قـبر سـليمان الـداراني وأبي مسـلم الخـولاني وبـلال الحبـشي المـؤذن.

ووصـل إلى خـان الشـيخ وقطـع الجـسر عـلى نهـر الأعـوج، متوجهـا إلى قريـة سعسـع، فنـزل في تكيتهـا، ثـم دخـل قريـة القنيطـرة ونـزل في تكيتهـا أيضـا. وهـذه التكايـا مؤسسـات عرفـت بهـذا الاسـم في العهـد الـتركي، وهـي أماكـن معـدة لنـزول الواردیـن والمسـافرين. يقـدم في بعضهـا الطعـام حسـب نـص واقفهـا أو شرط بانيهـا. وهــي تشـبه الربـط أو الزوايـا أو الخوانـق مـن بعـض الوجـوه. وقـد يسـتعمل الشـيخ كلمـة تكيـة أحيانـا بـدلا مـن خـان أو نـزل أو فنـدق.

واسـتمر الشـيخ في سـفرته فـأشرف عـلى قبـة الشـيخ (أبي النـدى) ومـر بقـرب قـبر عكاشـة ومحصـن الصحـابي فقـرأ لهـما الفاتحـة. ثـم وصـل إلى غديـر مـاء طافـح وصحـراء مخـضرة. فنـزل بالقـرب مـن جـسر بنـات يعقـوب ولا ينـسى أنـه رأى بذلـك المـكان لعلعـا أحمـر نابتـا.

ثـم يـشرف عـلى جـسر بنـات يعقـوب المبنـي بالأحجـار ويمـر بالخـان ويقطـع الجـسر الـذي فـوق نهـر الأردن ثـم يصعـد في تلـك المـروج الخـضراء ويبيـت تلـك الليلـة قاطـع الجـسر.

ويتابع سيره فيقطع الفيافي النّضرة والأراضي الخضرة إلى أن يصل جبّ يوسف، فيشرب من مائه الزّلال بعد أن يدلي فيه الدّلاء، ويزور قبر الشّيخ عبد الله وعليه قبّة لطيفة، وهو على حافَّة الطّريف، وفي الجانب الآخر من الطّريق بركة ماء واسعة الأطراف، وهناك خان عامر البناء يأمن فيه من يخاف، وعلى جبّ يوسف قبَّة لطيفة، وبالقرب منه مسجد لطيف.

ويسير حتَّى يصل وقت العصر (خان المنية)، وينزل في تلك المروج، ولا يفوت الشَّيخ رغم انشغاله بذكر الله أن يرى زهرًا يسمّى (الكلخ)، طويل السّاق لطيف الاتِّساق على حدّ تعبيره، والمنية وبعضهم يصفها المنيّة بالتَّشديد هي بحيرة طبريا، ويمشي بحذاء تلك البركة (البحيرة) ويرى في وسط البركة حجر النملة المشهور، وينشد مع القائل:

أقنع فلا تبقى بلا بلغة

وليس ينسى ربّك النّملة

إن أقبل الدّهر فقم قائمًا

وإن تولّى مدبرًا نم له

ثمّ يقطع تلك العقبة فلا يمرّ بمدينة طبريًا، ويفارق المنية حتَّى ينزل في أرض مخضرّة لطيفة الجنبات فيها بئر ماء من ماء الأمطار ويسير فيقبل على تكية عيون التّجار، وهي خراب الآن، تقع قبالة جبل طابور، بكسر التّاء وتخفيف الجيم، لغةً في التجار، وبضم التّاء وتشديد الجيم جمع تاجر، وهو منزل حسن، ومنه يفرق المسافر الذَّاهب إلى مصر إلى جهة الغرب، والذَّاهب إلى القدس إلى جهة الشّمال (كذا) (الجنوب)، ويستمرّ حتَّى ينزل بقرية النَّاعورة (وهي قرية إلى الشّرق من سولم)، وألوية الزُّهور مرفوعة فيما بيننا منشورة.

وينزل قبالة قرية (جلمة) وهي شرق المقيبلة، عند بئر الماء والشّجرة

المنفـردة هنـاك، ويسـتمر في سـيره إلى أن يقبـل عـلى بلـدة جينـين (جنـين الآن).

ويقيـم بجينـين ويـزور فيهـا ضريـح الشّـيخ عـزّ الدِّيـن الـذي يُقـال لـه أبـو حمـراء (وقـد يكـون أحـد رجـال صـلاح الدّيـن). كـما يـزور مدافـن الأمـراء بيـت طربـاي الذيـن كانـت بلـدة جينـين في أيديهـن، والشّـيخ غنايـم أخـو غنيـم المجـذوب العجلـوني (وهـو شرقـي الجامـع الكبـير).

واجتمـع بالشّـيخ إسـماعيل اليعبـدي، ودعـاه إلى قريتـه يعبـد، قبـل الشّـيخ الدّعـوة وسـار فمـرّ بقريـة يعبـد، وزار فيهـا قـبر الشّـيخ نـصر اللـه اليعبـدي مـن ذريَّـة الشّـيخ عبـد القـادر الكيـلاني.

ثـمّ تابـع سـيره في سـفرته الطَّويلـة الشَّـاقَّة، فمـرّ عـلى قريـة عرابـة، وزار فيهـا نبـيّ اللـه (أعرابيـل) مـن أولاد يعقـوب، وهـو مـزار لطيـف عليـه قبَّـة عظيمـة، ولـه بـاب وغلـق، وزار أيضًـا قـبر محمـد الشَّـمالي، وهـو في القسـم الغـربي مـن عرابـة، يحيـط بـه مسـجد قديـم.

ثـمّ اتجـه جنوبًـا إلى شرق، فمـرّ عـلى (فحمـة)، وزار فيهـا قـبر الشّـيخ (لمسـاب)، ثـمّ اسـتمرّ في سـيره جنوبًـا إلى شرق، فمـرّ عـلى (عجّـة)، وزار فيهـا نبـيّ اللـه (عجيـج)، ثـمَّ اتّجـه إلى الغـرب فمـرّ بقريـة (الرّامـة) فـزار النبـيّ (حزقيـل) واتّجـه جنوبًـا إلى شرق، فمـرّ عـن قريـة السـيان (السيلة – سيلة الظّهـر)، ثـمّ إلى الـشّرق شـمالًا، فمـرّ بقريـة (اللاويـة) وزار قـبر النّبـيّ (لاويــن)، وزار في طريقــه رجــال الظّهــرات (يعــرف مقامهــم الآن باســم القبيبـات)، وهـم شـهداء مشـهورون وعليهـم قبّـة مبنيَّـة عـلى رأس جبـل مطـلّ عـلى الطّريـق، ووصـل بعـد ذلـك (برقـة)، ومـرّ عـلى قريـة سبسـطية، ويقـول الهـرويّ إنّ بهـا قـبر (يحيـى بـن زكريـا) وقـبر أمّـه (اليسـع) وقـبر شـداد بـن أوس (شـداد بـن أوس الصّحـابي ببـاب الرحمـة ببيـت المقـدس) ولمَّـا فتـح حسـام الدّيـن بـن عمـر لاجـين نابلـس، وصـل إلى سبسـطية، وكان الإفرنـج قـد حوّلـوا المقـام كنيسـة، فأعـاده مشـهدًا كـما كان.

وخرج الشّيخ من سبسطية فزار في طريقه قبر الشّيخ (شعلة) ومقام الشّيخ (أبي القاسم الجنيد) (٢٩٧هـ)، واستمرّ إلى أن وصل نابلس. ويقول عنها كما قال الحنبلي صاحب الأنس الجليل ٩٠١هـ: «وهي كثيرة الأعين والأشجار والفواكه، ومعظم الأشجار في ضواحيها الزّيتون، وفي نابلس كثير من السّامرة، ولمَّا أقبلنا على تلك الطّواحين المحفوفة بالمياه والبساتين، سرنا ودخلنا المدينة وقت الغروب».

ويستدلّ من هذا أنّ الطَّواحين التي يراها المسافر الآن بقرب الطَّريق العامَّة خرابًا، كانت عامرة في زمنه.

وابتدأ تجواله في نابلس، فزار فيما زار قبر بشر الحافي (يقع قبره في محلة الحبلة، ونسبة هذا القبر لهذا الصُّوفيّ غير صحيح) من رجال الرسالة القشيرية.

ومرّ على قبَّة السَّبيل خارج المدينة، فقال: «وهي قبَّة عظيمة البناء على الشّكل المبنيّ في الهواء، يصعد إليها بدرج من داخلها، ولها شبابيك مطلَّة على ذلك المرج، وتحتها بركة ماء».

ثمّ إلى الجامع الكبير الذي فيه مكان يسمّى المارستان (أو البيمارستان أو الاسبتار أو دار المرضى، وهو المستشفى. أمام بابه ضريح يسدلّ أنّه لمصطفى بك الفقاري، وأنّه عمر بإشارة من رضوان بك أمير الرّكب المصري سنة ١٠٥١هـ، ولعلّه من بناء فخر الدّين محمد بن فضل الله القبطي، مات سنة ٧٣٢هـ، وكان في أكثر المدن في القرون الوسطى بيمارستانات، فقد كان في غزّة وصفد والخليل والرّملة وبيت المقدس ودمشق والقاهرة والإسكندرية وبغداد وحمص وحلب وحماة وغير ذلك بيمارستانات بعضها يرجع إلى العهد الأمويّ أو العبّاسيّ أو الفاطميّ أو الأيُّوبيّ أو المماليك أو الأتراك العثمانيِّين).

ثمّ دخل الحمّام اللَّطيف الجليل الذي يسمّى الخليل. ومن مفاخر المدن العربيَّة الإسلاميَّة شيوع الحمّامات، فيندر أن تجد مدينة لا تجد

فيها الحمّامات العامّة، وكانت هذه الحمّامات تؤلّف جزءًا أساسيًّا عند بناء المدارس أو الرّبط أو الزّوايا أو الخوانق أو البيمارستانات أو القصور. ولقد كشف الأثريّون في خربة المفجّر شمالي أريحا قصرًا لهشام بن عبد الملك، وهو من مفاخر بني أميّة، حوى من الحمّامات المتقنة المزّكة والمزيّنة جدرانها بالنّقوش البديعة من الجصّ، وقد بُنِيَت على نظام عجيب واشتملت على أقنية وأنابيب فخارية ومجار يعجز المحدثون أن يأتوا بمثلها.

ويقول (وذهبنا إلى روض أريض يصعد إليه بدرج طويل عريض، وهو من العجائب التي عن الغرائب مفصحة. إذ يكون بستان ذو أشجار ومياه جارية وثمار يانعة وأزهار فائحة واطيار صادحة، وذلك كله فوق الأسطحة، وتحتها أفران ومخازن وغير ذلك مما عليه الناس مصطلحة، وهو من خصوصيات هذه البلدة النابلسية لإن بيوتها كلها مبنية بالأحجار منحوتة والجص مبنية واسقفتها القبو المعقود وليس السقف من الخشب هناك بمعهود) ثم ذهب إلى جهة السراي الخراب العتيقة وزار ضريح الدرويش (مراد الرومي) وخرج الى إيوان لطيف قبالته روض وريف «وأشجار باسقة وأزهار متناسقة وورد يانع على الغصون وعرائش عنب تستظل من تحتها يكون، وفي وسط المكان بركة ماء لطيفة بها ماء يجري».

وأقام الشيخ بنابلس خمسة أيام وسافر منها فمر على قبر النبي (العزير) وحوله أشجار الزيتون وهو مدفون في مغارة كبيرة مبنية تحت ذلك القبر.

ثم ركب إلى قرية عورتا (وهي تقع إلى الجنوب الشرقي من نابلس) فدخل مسجدها وفيه مغارة. ويقول الهروي أن فيها قبر (يوشع بن نون) أما الحنبلي فيقول أن يوشع دفن في قرية كفر حارس (وهي إلى الغرب من مردا). وهناك بركة ماء واسعة مبنية بالأحجار البيض بين

هاتيك الأشجار القيام. ثم زار نبي الله المنصور في جامع قديم مهجور واستمر متجهًا إلى الشرق لجنوب فوصل قرية جماعين (جماعيل) وزار بالقرب منها الشيخ علم الهدى.

ولا يخفي أن بني قدامة أجداد الشيخ النابلسي كانوا قد هاجروا من جماعيل، عند الحروب الصليبية فجاؤا دمشق وسكنوا الصالحية على سفح قاسيون وعمروها ونسبت إليهم. وبنى فيها الشيخ أبو عمر بن قدامة النابلسي جامعًا ومدرسة للحنابلة وظلت هذه المدرسة عامرة إلى ما بعد العهد العثماني وتوفي أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة شيخ الصالحية والمقادسة سنة (٦٠٧ هـ - ١٢١٠ م) وكان يطلق عليهم لقب النابلسي أحيانًا والمقدسي أحيانًا أخرى. وقد زار الشيخ ديار أجداده ويقول إنه لم يبق منها سوى الآثار. ولا تزال دور بني قدامة حتى اليوم في جماعيل وهي خراب.

وزار الشيخ أحمد الزيتاوي ومر على قرية مردا ثم واصل سيره جنوبًا لشرق فوصل إلى عقبة اللبن (كانت اللبن الفاصل بين ولاية بيروت ومتصرفية القدس المستقلة في آخر العهد العثماني) وهناك خان وبركة ماء. ثم صعد العقبة فمر بقبر الصحابيين عمرو بن أمية الضميري وقبر عبد الرحمن بن عوف، وبقرية سنجل فعين يبرود وفيها مسجد من غير سقف يصعد إليه بدرجات. ثم البيرة فاستراح وأكمل سيره حتى صعد العقبة (الشرفة) وأشرف على القدس.

فردد مع الحافظ بن حجر العسقلاني حيث قال:

إلى البيت المقدس قد أتينا

جنان الخلد نزلًا من كريم

قطعنا في مسافته عقابا

وما بعد العقاب سوى النعيم

فوصل إلى مزار الشيخ جراح (المدرسة الجراحية)، وهذا المزار ينسب إلى الأمير حسام الدين بن شرف الدين عيسى الجراحي أحد أمراء الملك صلاح الدين توفي سنة (٥٩٨ هـ) ودفن بزاويته في المدرسة المذكورة.

وخرج للقائه عند هذا المزار جماعة من المشايخ والأعيان وقد نشروا البيارق والإعلام وهم يتلون البراءة ورافقوا الشيخ إلى أن أقبلوا على باب المدينة مع تلك الجماعات. فاستقبلهم فقراء الزاوية الأدهمية (وهي الزاوية التي تقع في مغارة تحت مقبرة باب الساهرة - قبالة مغارة الكتان ـ أو مغارة سلمان). حتى دخل باب المدينة المسمى بباب العمود.

ثم يصف لنا سور بيت المقدس فيقول: (وسور بيت المقدس سور جديد متين مشيد قوي الأركان عظيم البنيان يحيط بالبلد كلها وعرها وسهلها مبني بالشيد والحجر المنحوت وفي داخله جميع الأماكن والبيوت وقد أخبرنا أنه من بناء جميع السلطان الملك المظفر سليمان خان (٩٤٤ هـ - ١٥٣٧ م). ومن المعروف أن الملك المعظم عيسى بن العادل أخا صلاح الدين أرسل من دمشق كما جاء في أبي الفداء، الحجارين والنقابين إلى القدس فحرب أسواره (٦١٦ هـ - ١٢١٩ م) وكانت قد أحصنت للغاية وذلك على زعمه، خوفًا من استيلاء الفرنجة عليها. وفي سنة (٦٢٦ هـ - ١٢٢٨ م) سلم الملك الكامل القدس للإمبراطور فردريك على أن يستمر سورها خرابًا ويكون الحكم في الرساتيق لوالي المسلمين ويكون للافرنج من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس (أي الممر أو الكوريدور بلغة الافرنج).

ويعدد لنا الشيخ عشرة أبواب لسور القدس منها باب العمود من جهة الشمال وباب آخر يسمى باب الداعية المتوصل إلى حارة بني زيد وباب يسمى باب دير السرب. وباب الساهرة ومن جهة القبلة باب المغاربة وباب صهيون (باب داود) ومن جهة الغرب باب صغير

لصق دير الأرمن وباب المحراب المعروف بباب الخليل وباب الرحبة. وهذه الأبواب هي ذات الأبواب التي يعددها الحنبلي في كتابه الأنس الجليل الذي ألف سنة ٩٠١ هـ. أما الدمياطي فيسمى ستة أبواب فقط وهي ما هي عليه الآن بإضافة باب الجديد الذي فتح في القرن التاسع عشر.

ثم يستمر في سيره والشيوخ يقرأون البراءة إلى أن يصل إلى المدرسة السلطانية (قرب باب السلسلة) وتصعد معه الجموع إلى تلك المدرسة الرحبة. وهي الآن خراب وقد سقط سقفها وما زالت حيطانها قائمة يراها الناظر إذا وقف في سطح الصخرة ونظر إلى الغرب وتقع بين باب سوق القطانين وباب السلسلة فوق جامع الحنابلة.

وقد بنى هذه المدرسة الأمير حسن الظاهري في بادئ الأمر للملك الظاهر خشقدم من ملوك المماليك فلما مات هذا سأل الملك الأشرف قايتباي قبولها فقبلها ونسبت إليه. وزار الملك الأشرف القدس سنة ٨٨٠ هـ. فلم تعجبه فلما كان سنة ٨٨٤ هـ. أمر بهدمها وتوسيعها فحفر أساسها ٨٨٥ هـ. وعمل على ظاهرها الرصاص المحكم كظاهر المسجد الأقصى وصارت على رأي الحنبلي ج ٢ - ٣٨٧ (جوهرة ثالثة وهي قبة الصخرة وقبة الأقصى وهذه المدرسة).

ويصعد إليها من درج منارة باب السلسلة وهي من المدارس الشهيرة ببيت المقدس مبنية من الأحجار الملونة المنحوتة ورواق المدرسة مبني بالأعمدة وشبابيك المدرسة من النحاس البرّاق وهي تطل على الحرم والمدرسة مبلطة بالرخام والدقيق الملون من الأحجار وهي مقسومة إلى قسمين قسم يتوصل إلى المطبخ وبيت الطهارة والقسم الآخر من الطف الميادين المفروشة بالسماقي الملون والرخام الأبيض والدقي ومسقوف بالسقوف المدهونة. وتشمل هذه القاعة على أربعة إيوانات.

وتحـت المدرسـة مسجد الحنابلـة ويصلـون فيـه عـلى حـدة ولا يـزال كذلـك إلى الآن. و بعـد أن تفـرق جمـوع المشـيعين أرسـل لهـم بالضيافـة السـيد عبـد اللـه أفنـدي.

ثـم يصـف لنـا الحـرم ولا يخـرج وصفـه عـما هـو عليـه الآن ويشـير إلى مـا يحيـط بالصخـرة مـن الداخـل مـن الدرابزيـن الحديـد إذ يستشـهد بـأبي بكـر العـربي الرحالـة (٤٨٥هــ) الـذي زار المـشرق في تلـك السـنة ولم يـر حـول الصخـرة شـيئًا «والظاهـر أن هـذا البنـاء المبنـي حـول الصخـرة إنمـا بنـاه الافرنـج لمـا اسـتولوا عـلى بيـت المقـدس سـنة (٤٩٢ هــ)».

ويستشـهد بالدمـيري فيقـول قـال في حيـاة الحيـوان «إن الوليـد بنـى قبـة الصخـرة في بيـت المقـدس ناقـلًا ذلـك عـن أبـن عسـاكر. ثـم قـال وفيـه نظـر. وإنمـا بنـى قبـة الصخـرة عبـد الملـك بـن مـروان في أيـام فتنـة أبـن الزبـير. لمـا منـع عبـد الملـك أبـن مـروان أهـل الشـام مـن الحـج خوفًـا مـن أن يأخـذ منهـم أبـن الزبـير البيعـة لـه. فـكان النـاس يقفـون في يـوم عرفـه بقبـة الصخـرة إلى أن قتـل أبـن الزبـير. ولعلهـا تشـعثت فهدمهـا الوليـد وبناهـا. انتهـى»

ثـم يذكـر لنـا الـكأس (الشـدروان - بـين الصخـرة والأقـصى ويقـول أن المـاء يجلـب إليهـا مـن ثـلاث بـرك كبـار مبنيـة بالكلـس والحجـر وعندهـم قلعـة مبنيـة بالأحجـار المتينـة يجلـس فيهـا أنـاس يحرسـون هـذه الـبرك مـن العـدو والمـاء يجـري مـن تلـك الـبرك في سـواق مغطـاة بالأحجـار. والظاهـر أن هـذه الـكأس مـن عـمارة السـلطان الأشرف قايتبـاي).

ويصـف لنـا بعـد ذلـك صحـن الحـرم والمناثـر ولا يخـرج وصفـه عـما يـراه الإنسـان الآن فيقـول «وبـين صحـن الصخـرة والسـور الشرقـي أشـجار زيتـون كثـيرة مـن عهـد الـروم» ولا تـزال تـرى هـذه الأشـجار حتـى الآن.

ثـم زار تربـة الشـيخ عـلاء الديـن البصـير وقنطـرة الخـضر وتربـة الشـيخ خيـبر والشـيخ السـيوفي والشـيخ مـوسى جـد محمـد العلمـي الكبـير والشـيخ عيـد والشـيخ غبايـن والشـيخ أبي الريـش ثـم دخـل الحـمام.

و بعـد ذلـك زار مقـام النبـي داود ويتفـق وصفـه بالإجـمال لمـا هـو عليـه الآن مـا عـدا مـا أضيـف إليـه بعـد ذلـك مـن عهـد السـلطان عبـد المجيـد ومـا بعـد ومـر عـلى تربـة محمـد القرمـي وزيـن الديـن عبـد القـادر القـدوة ولـده والشـيخ أحمـد المثبـت وقـبره تجـاه محمـد القرمـي. ثـم زار الشـهداء البدريـة ودخـل (التكيـة الخاصكيـة) المشـهورة فوجدهـا مملـوءة بأنـواع الخـيرات وأجنـاس المـبرات وداخلهـا قـبر سـعد الديـن الرصـافي.

ثـم زار مقـبرة (مامـلا) ومـر في الطريـق عـلى قـبر الشـيخ المنـسي وقيـل هـو صحـابي. ثـم توجـه إلى عـين سـلوان. وفـوق العـين مسـجد لطيـف وحولهـا بسـاتين القريـة المعروفـة بقريـة سـلوان.

ثـم مـر عـلى بـئر أيـوب في ذلـك الـوادي وهـو بـئر عـذب المـاء بالقـرب مـن عـين سـلوان. ومـاء العـين بـارد خفيـف يسـقي المـاء طـول السـنة مـن ثمانـين ذراعًـا. وإذا كان زمـن الشـتاء، فـاض المـاء وسـاح حتـى يسـيح عـلى وجـه الأرض في بطـن الـوادي وتـدور عليـه ارحيـة تطحـن الدقيـق.

قـال الحنبـلي (٩٠١ هــ) «وهـذا البـئر مشـهور معـروف وفي كل سـنة عنـد قـوة الشـتاء وكـثرة الأمطـار يغـور المـاء منـه حتـى يصـير كالنهـر الجـاري ويسـيح إلى مسـافة بعيـدة ويسـتمر عـلى هـذا الحـال عـدة أيـام كالشـهر ونحـوه. وهـو مـن العجائـب».

ثـم توجـه إلى طورزيتـا (جبـل الطـور) ويسـمى هـذا الجبـل جبـل الحمـر ومـر عـلى كنيسـة (الجسـمانية) ودخـل الكنيسـة لزيـارة مريـم عليهـا السـلام. ثـم خـرج ورأى المـكان الـذي يسـميه النـاس (بطرطـور فرعـون) ويرجمونـه بالأحجـار ورأى بالقـرب منـه قبـة أخـرى مـن الصخـر يقـال لهـا (كوفيـة) وهـي زوجـة فرعـون!.

وصعد جبل الطور وزار قبر رابعة العدوية البصرية. وقبرها في زاوية ينزل إليها بدرج. ثم يقول الشيخ والصحيح أن قبر رابعة في البصرة. أما هذه التي بالجبل فهي رابعة زوجة أحمد بن أبي الحواري.

وذهب الشيخ لزيارة تربة الشيخ محمد العلمي (١٠٣٨ هـ) وجامعه المعمور ورأى المنارة ثم قبر سلمان الفارسي الصحابي وعلى يمين الداخل المسجد شجرة كبيرة من الخرنوب تسمى بخرنوبة العشرة.

ثم عاد إلى باب الرحمة فزار قبر الصحابيين شداد أبن أوس وعبادة بن الصامت. ودخل من باب الأسباط فمر على المدرسة الصلاحية فوجدها «مدرسة عظيمة الآثار أبنيتها قديمة وكأنها كانت قديمًا كنيسة. فإن واجهة بابها تؤذن بذلك وكذلك في داخلها الأعمدة والسقوف النفيسة ويقال إن بها قبر حنة أم مريم كما ذكره الحنبلي. وقد وقف على قبر وهو مكان مكشوف والعامة تقول إنه قبر هيلانه أم قسطنطين التي بنت الكنيسة الجسمانية. ثم مر على (بركة بني اسرائيل) لصق سور المسجد الشمالي فوجدها بركة واسعة عميقة ليس فيها ماء وإنما فيها الحشيش النابت ثم مر بالمدرسة القرقشندية وهي قبالة هذه البركة لصق باب المسجد وفيها قبر الشيخ القرقشندي ثم توجه ودخل المدرسة الغادرية فوجدها عظيمة البناء واسعة الفناء. مشتملة على أشجار الورد لها الرونق وهي بين المدارس كالعلم المفرد».

وعزم على زيارة سيدنا موسى. «فسار بعد طلوع الشمس بساعتين فوصل وكان وقت الظهر قد فات. وكادت أن تدرك المشاة الوفاة، من شدة الذعر وكثرة الوعر. فأشرف على المقام وكان قد سبقه الخادم من بيت المقدس ففتح المقام قال الحنبلي «وطريقه عسر لكثرة الوعر وعليه بناء وداخله مسجد وعلى يمينه قبة معقودة بالحجارة. وفيها ضريح يوضع عليه في أيام موسم زيارته ستر من حرير أسود وعليه طراز أحمر مزركش دائر على جميع أطرافه وقد بنى القبة

الملك الظاهر (٦٦٨هـ) ثم بنى أهل الخير وزادوا في المسجد وحوله وفي سنة (٨٧٥ هـ) وسع داخل المسجد من جهة القبلة ولم تكمل عمارته إلى (٨٨٥ هـ) ثم بنيت منارة بعد سنة ٨٨٠ هـ وأهل بيت المقدس يقصدونه في كل سنة عقب الشتاء ويقيمون عنده أيامًا. وقد ظهر في هذا المكان أشياء من نوع المعجزات منها اشتعال الأحجار إذا أوقدها الإنسان تشتعل كما يشتعل الحطب اليابس.»

ثم أطل على (بركة لوط) بحيرة لوط المشهورة «وهي بركة واسعة كبيرة وأسمها البحيرة المنتنة (زُغر) وتتصل ببحيرة طبرية (بحيرة المنية) وببحيرة الحولة وتسمى اليوم (بحيرة قدس) نسبة إلى قرية قدس من أعمال صفد، تتصل أراضيها بهذه البحيرة. وتخرج من بحيرة المنتنة الأحجار على صورة البطيخ على شكلين يعرف بالحجر اليهودي وقد ذكرته الفلاسفة واستعملته في الطب لمن به وجع الحصاة في المثانة، وهو نوعان ذكر وأنثى، ومن هذه البحيرة يخرج الحمر وقد ذكر الناس ممن تقدم عدم تكون الحيوان في البحيرة المنتنة. ولم يتعرضوا لبحيرة كنودان ببلاد أذربيجان لإنها لا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا من غيره».

وزار «قبر الراعي» القريب من مقام النبي موسى. وليس عليه قبة أو بناء وعاد راجعًا إلى القدس للمدرسة السلطانية.

وذهب إلى المدرسة الغادرية ودخل إلى ساحة فضية وجلس في ذلك الجامع الذي أذهب عنه الحزن الجامع. وتوجه لزيارة ضريح أبي يزيد البسطامي في المدرسة البسطامية ثم إلى التكية المولوية، فالزاوية الادهمية ثم زار الشيخ بدر فمقبرة باب الساهرة، ويقابلها مغارة الكتان، ثم عاد فدخل المدينة من جهة الغرب من الباب الصغير الملاصق لدير الأرمن فمر على قبر الشيخ أبو شوشه وحسن بن عليل ثم إلى المدرسة السلطانية.

وتوجه إلى زيارة الخليل فمر على قبر (أحمد أبي ثور) وهذا حضر فتح بيت المقدس، وكان يركب ثورًا ويقاتل عليه وقد وقف عليه الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين القرية التي بقرب باب الخليل، وهي قرية بها دير من بناء الروم يعرف قديمًا بدير مار قوص (مرقص) ويعرف الآن بدير أبي ثور (محلة أبي طور أو الطوري). ثم أجتاز قبة راحيل أم يوسف. قال الحنبلي (قبة راحيل بجانب الطريق بين بيت لحم وبيت جالا في قبة موجهة إلى جهة الصخرة). ثم مر بالقرب من مقام الخضر أبي العباس (قرية الخضر) وأقبل على مدينة الخليل فمر بجانب السبيل على ماء موضوع هنالك للسبيل. وهو ماء على يسار الساري يأتي من حلحول. وهي قرية بها قبر النبي يونس. وكأنه كان على ذلك الماء بناء فتهدم. ثم سار فمر في وسط ذلك الوادي بين هاتيك الكروم. فوجد على اليمين ماء يسمى عين سارة وهي نضاحة بالماء المعين.

ثم أقبل على حبرون (الخليل) ولاحت له منارة الشيخ على البكا (توفي ٦٧٠هـ) ودفن بزاويته المشهورة وهي بحارة منفصلة عن مدينة الخليل من جهة الشمال. ومر عن مقابر المدينة، فكان ذلك اليوم يوم خميس الأموات وقد خرجت النساء إلى زيارة المقابر حسب عادة هذه البلاد.

ثم دخل بين البيوت فمر من يمينه على حوض من الماء يتدفق منه الماء الزلال. وعلى يمين الصاعد (المطبخ) الذي يطبخ فيه الطعام ويفرق على المجاورين والواردين وهو سماط الخليل ويسمى (الدشيشه). وتدق على باب المطبخ الطبل خانه في كل يوم بعد صلاة العصر عند تفريق السماط الكريم. قال الحنبلي (٩٠١ هـ) ومقدار ما يعمل من الخبز كل يوم أربعة عشر ألف رغيف إلى خمسة عشر ألف رغيف في بعض الأوقات. يأكل منه أهل البلد والمجاورون بكرة النهار وبعد الظهر لأهل المدينة. وبعد العصر تفرقة عامة لأهل البلد والواردين

ولا يمنع من سماطه أحد الأغنياء أو الفقراء. وهو مكان متسع يشتمل على ثلاثة أفران وستة أحجار للطحن. وعلى هذا المكان الحواصل التي يوضع بها القمح والشعير. وفي أعلى الدرج قبالة وجه الراقي باب كبير مفتوح يدخل منه إلى ساحة مسقوفة بالعقد من الأحجار مفروشة بالبلاط المنحوت الكبار. وعلى يمين الداخل شعيرة محبوكة جميعها من النحاس. وهو مسجد يعرف بالجاولية نسبة إلى أبي سعيد سجر الجاولي نائب السلطنة فهو الذي عمر هذا المسجد والدهليز وانتهت عمارته سنة ٧٢٠ هـ ويتوصل من ذلك الباب إلى جامع سيدنا الخليل وفي وسطه تربة.

والظاهر أن أبا بكر الإسكافي زار الغار الشريف كما رآه أبو طاهر السلفي (٥٧٠ هـ) ويقول الهروي «دخلت القدس (٥٦٩ هـ) زمن الصليبيين وقد حدثه بعض مشايخ الخليل أنه في زمن الملك برذويل انخسف مكان المغارة. فدخل جماعة من الافرنج بإذن الملك ثم سدت المغارة وذلك ٥١٣ هـ»

وبعد أن وصف الجامع الإبراهيمي وزار المقامات خرج إلى صحن الجامع وجلس في مكان فجاءوا له بالخبز والطعام من مطبخ الخليل وهو طعام العدس فأكل منه يقصد البركة.

وقبر يوسف (خارج السور السليماني) من جهة الغرب بداخل المدرسة المنسوبة للسلطان الملك الناصر حسن وتسمى الآن بالقلعة وقد فتح شهاب أحمد الدين اليغموري بابًا في السور السليماني من جهة الغرب في سلطنة الملك الظاهر برقوق.

ثم ذهب إلى المنزل الذي ينزل فيه لاستقبال الواردين فحضر عنده الشيخ أحمد أبي الوفا الخطيب بجامع الخليل التميمي نسبة إلى تميم الداري الصحابي الذي أقطعه النبي (صلعم) تلك الأراضي. ويقول الشيخ (وقد رأيت عند الشيخ أحمد القطعة التي يقال أنها من خف أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب. وقد صارت رثة وفيها بعض أثر الكتابة وقد رأيت معها ورقة مكتوبة في الصندوق الذي فيه القطعة الاديمة منسوب خط هذه الورقة إلى أمير المؤمنين المستنجد بالله العباسي كتب منها نسخة الانطاء وصورة ما كتبه أمير المؤمنين بالله العباسي بخطه «الحمد لله نسخت كتاب رسول الله (صعلم) الذي كتبه لتميم الداري وأخوته في سنة تسع من الهجرة الشريفة بعد منصرفه من غزوة تبوك في قطعة أديم من خف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبخطه نسخت كهيئته.»

«واستمر هذا الإقطاع بيد ذرية تميم يأكلونه إلى يومنا هذا وهم يقيمون ببلد الخليل وهم طائفة كثيرة يقال لهم الدارية. وقد أعترض بعض الولاة على آل تميم وأراد انتزاع الأرض منهم ورفع الأمر إلى القاضي. وهم للآن من أعيان البلاد الخليلية ولهم هناك المشيخة القادرية يجعلون الذكر كل يوم جمعة بمسجد الخليل» (انتهى كلام الشيخ).

وزار مسجد اليقين (مقام لوط) وهو بقرية ياقين. قال الحنبلي (وثم مسجد بناه أبو بكر بن محمد الصباحي) (٣٥٢ هـ) ثم زار مغارة بظاهر المسجد بها قبر فاطمة بنت الحسن وعند قبرها مكتوب على رخامة بالكوفي:

أسكنت من كان في الأحشاء مسكنه

بالرغم مني بين الترب والحجر

أفديك فاطمة بنت أبن فاطمة

بنت الأئمة بنت الأنجم الزهر

ثم ذهب إلى كفر بريك (يقال لها بني نعيم) لزيارة لوط والقرية تبعد نحو فرسخ عن الخليل فدخل الجامع ثم عاد إلى الخليل من

غـير الطريـق الأول فمـر عـلى قريـة سـيعير (سـعير) وهـي الفاصلـة بـين الخليـل والقـدس لزيـارة العيـص أبـن اسـحق. وبالقـرب مـن سـيعير قـبر الشـيخ (إبراهيـم الهدمـه) أصلـه كـردي تـوفي ٧٣٠ هــ.

ورجـع إلى الخليـل وتوجـه لزيـارة الأربعـين فاسـتمر في السـير إلى أن وصـل شـجرة كبـيرة جـدًا عمـر حولهـا مصطبـة كبـيرة بالحجـر والكلـس وتحتهـا عـين مـاء ينـزل إليهـا بـدرج ثـم صعـد المغـارة المشـهورة بمغـارة الأربعـين وهـي داخـل مسـجد لطيـف. وتوجـه بعـد ذلـك لزيـارة مـزار الشـيخ يحيـى.

وودع الجامـع بقلـب موجـع وجفـن دامـع. ثـم أتى قريـة حلحـول فـزار النبـي يونـس ومـر ببيـت آمـر (أومـر) وبهـا قـبر متـى (أب أو أم يونـس) ولم يـزل في السـير حتـى أشرف عـلى الـبرك (بـرك سـليمان) التـي يجتمـع فيهـا المـاء ويجـري إلى مدينـة القـدس. ثـم يصـف الـبرك الثـلاث وهـي ملانـة مـن ميـاه الأمطـار ومـن عـين لطيفـة. ولم يعلـم عمقهـا لامتلائهـا بالمـاء.

وهنـاك قلعـة مبنيـة بالأحجـار فيهـا رجـل مـن الفلاحـين يسـكنها بأهلـه وأولاده وأعوانـه وأجنـاده لأجـل حراسـة تلـك الـبرك مـن الافسـاد. ثـم جـاوز الـبرك وعـرض لـه أن يـزور بيـت لحـم.

ويقـول الهـروي (وبيـت لحـم غالـب سـكانها في عصرنـا نصـارى ويـرد إليهـا مـن بـلاد الافرنـج وغيرهـا أمـوال كثـيرة للرهبـان المقيمـين في الديـر المجـاور للكنيسـة. وقـد زار مغـارة (مهـد عيـسى) عليـه السـلام وعليـه قناديـل مـن ذهـب مشـعولة ليـلًا نهـارًا. ومـكان جـذع النخلـة نقـرة في الأرض صغـيرة مزمكـة بالذهـب وعليهـا القناديـل مـن ذهـب أيضًـا مشـعولة في جميـع الحـالات). ثـم خـرج الشـيخ وذهـب إلى مسـجد بيـت لحـم. فيقـول وهـذه القريـة نصـف أهلهـا القاطنـين بهـا مسـلمون والنصـف نصـارى (هـذا في سـنة ١١٠١هـ).

ومـن عادتهـم أنهـم يصنعـون المسـابح مـن خشـب الزيتـون ويخرطونهـا عـلى أنـواع مختلفـة ويبيعونهـا للـزوار فاشـترى الشـيخ منهـا. ثـم سـار إلى القـدس وبـات في المدرسـة السـلطانية.

وحـضر عنـده الأصحـاب فزارهـم. ثـم ذهـب إلى القلعـة فـزار الجامـع بداخلهـا (وفيـه محـراب داود). وفي هـذا الحصـن بـرج عظيـم البنـاء يسـمى بـرج داود مـن البنـاء السـليماني، ثـم عـاد فـزار تربـة مأمـن اللـه، ومدفـن القلنديـة. قـال الحنبـلي (وبوسـط مأمـلا زاويـة تسـمى القلنديـة وبهـا أبنيـة عظيمـة. كانـت هـذه الزاويـة كنيسـة مـن بنـاء الـروم وتعـرف بالديـر الأحمـر. فخربـت وفيهـا مدفـن الأعيـان مـن الأمـراء). ثـم رجـع الشـيخ فدخـل المدينـة مـن بـاب العمـود إلى دار نقيـب السـادة الأشراف.

وأرسـل إليـه أمـين الديـن أفنـدي وطلـب منـه الإجـازة العامـة في العلـوم عـلى مقتـضى الطريـق المعلـوم فكتـب لـه في كتـاب إجازتـه.

وأخـيرًا عـزم الشـيخ عـلى الرجـوع إلى دمشـق فلـما كان اليـوم الرابـع والثلاثـون حـضر لوداعـه جملـة مـن أصحابـه فسـاروا

معـه خارجًـا إلى بـاب العمـود ومنهـم مـن سـبقه إلى الشـيخ جـراح ووصـل بعضهـم إلى البـيرة فنـزل هنـاك عـلى ميـاه كثـيرة وريـاض نضـيرة. ثم سـار إلى قريـة سـنجل وبـات ليلـة عطـرة كانـت مـن اللصـوص خطـرة، وواصـل سـيره إلى نابلـس. فخـرج أهلهـا للقائـه حتـى دخـل مدرسـة الشـيخ بـدران (هـو العـماد عبـد الحافـظ سـنة ٦٩٨ هـ) فجلـس في اليـوم السـادس والثلاثـين في تلـك المدرسـة حتـى ورد الركـب الشـامي. فجاءتـه المكاتيـب مـن جهـة الأهـل وجانـب أصدقائـه وأحبائـه. فـأول مـا ورد لـه مكتـوب أخيـه وشـقيقه الشـيخ يوسـف وولـده الشـيخ محمـد صـادق وبعـض الأصدقـاء.

وطلـب منـه الشـيخ أحمـد الحـارثي أن يكتـب لـه إجـازة في طريقـة الشـاذلية ففعـل. ثـم ذهـب لزيـارة (الشـيخ مـراد الرومـي) في زاويتـه وأخـذ خـادم ذلـك المـكان (يـدًا صغـيرة مجعولـة مـن عظـم السـمك الأبيـض ولهـا سـاعد

مـن حسـك السـمك الابنـوس الأسـود المتـين كانـت لشـيخه وهـي مغـروزة فـوق ضريحـه فتناولهـا ورفعهـا للشـيخ فأخذهـا).

وذهـب إلى الحـمام المسـمى بحـمام الريـش. ثـم لضيافـة بعـض الأصحـاب ثـم لزاويـة القـدم المرسـوم والشـهيد المعلـوم. ثـم ذهـب إلى المـكان المسـمى بـرأس العـين المشـهور بعـين الرصـاص. وبعـد ذلـك ذهـب بـين تلـك الريـاض إلى مـكان منخفـض في الأرض عليـه عـمارة تشـبه القبـو كالقـبر يقـال إنـه دفـن فيـه النمـرود. ثـم مـر عـن عـين تسـمى عـين العسـل. ثـم توجـه إلى جهـة مسـجد الخـضراء فدخـل الجامـع وهـو قديـم البنيـان متهـدم الأركان. فيـه بركـة مربعـة والمـاء يجـري مـن أفـواه سـواقيها.

وذهـب بعـد ذلـك إلى جامـع السـاطور ثـم إلى ضيافـة بـدار الشـيخ عبـد الغفـور. فالمدرسـة فبـات فيهـا وودع أصدقـاءه. ثـم سـار حتـى وصـل بـئر الحـمام وهـو بـئر ينبـع المـاء مـن أسـفله فيظهـر عـلى وجـه الأرض ويمـلأ البريـة. ثـم لا يـزال يتناقـص حتـى يصـير بحيـث يـدلى الدلـو إليـه ولا يسـتطيع أن يتنـاول الإنسـان مـاءه بيـده. ولمـا جـاءه كان مـاؤه قـد نقـص عـن وجـه الأرض مقـدار نصـف ذراع. وحولـه المـروج الخـضراء ذات الاتسـاع. وسـار إلى قريـة قباطيـة وبـات فيهـا فقصـد زيـارة قـبر الشـيخ محمـد أبـو الـرب سـمي بذلـك لإنـه إذ كانـوا يطبخـون ربّ الخرنـوب في حلـة كبـيرة عـلى النـار أدخـل فيهـا يـده وحـرك الـرب فلـم تحـترق. وعليـه قبـة مبنيـة بالحجـارة والشـيد وحولـه قبـور. ومعلـوم أن جبـل نابلـس أشـتهر في القـرون الوسـطى بصناعـة رب الخـروب أو دبـس الخـروب كـما أشرنـا إلى ذلـك سـابقًا. وسـار بعـد ذلـك فوصـل إلى جنـين ودخـل القلعـة المعمـورة وبـات في بيـت خارجهـا. وكان ذلـك تمـام اليـوم الأربعـين. ثـم ذهـب إلى الحـمام في اليـوم الحـادي والأربعـين وركـب إلى قريـة (جلمـة) وسـار إلى أن وصـل عيـون التجـار وبـات هنـاك. إلى أن وصـل المنيـة «وأشرقـت عليـه هاتيـك البحـيرة الواسـعة وعـلى حافتهـا أشـجار الدفـلى ذات الزهـور الحمـرة» وأسـتمر إلى أن وصـل جـب يوسـف فـشرب مـن مائـه ثـم وصـل جـسر

بنات يعقوب فبات في داخل الخان الخالي من نوع الإنسان. وصعد إلى الجسر الطويل يمشي تارة ويركب أخرى حتى قطع الحجارة المصفوفة بذلك السبيل ومر على قوم من العرب النازلين في بيوت من الشعر فتذكر قول أبي العلاء:

والحسن يظهر في شيئين رونقه

بيت من الشعر أو بيت من الشعر

فنزل في ذلك الحي. ثم سار إلى أن وصل القنيطرة،

ونزل في تكيتها وحضر عند قاضيها وخطيبها وبات تلك الليلة مسرورًا. ثم سار إلى سعسع، «وسعسع نحوه نور الشام». فدخل الخان وبات فيه مع الرفاق والخلان. وكان ذلك اليوم الخامس والأربعين فركب متوجهًا نحو دمشق وأجتمع بالاقارب والأحباب. إلى أن أقبل على قرية داريا الكبرى «فأقبل على باب الله حتى دخل داره بالصحة والسلامة والعافية التامة والكرامة» كما يقول. وكان ذلك يوم الأربعاء أول شهر شعبان سنة ١١٠١ هـ.

رحلة
مصطفى البكري الصديقي

يقـول السـيد مصطفـى الصديقـي الدمشـقي ثـم المقـدسي «أنـه طالما كانـت تتوجـه بـه الهمـة وتقلقـه الأشـواق بعزمـة أثـر عزمـة إلى زيـارة بيت المقـدس» فـكان ذلـك يـوم الخميـس في اليـوم التاسـع عـشر مـن محـرم الحـرام مـن عـام إثنـين وعشريـن وألـف. فسـمى رحلتـه «الخمـرة المحسـية في الرحلـة القدسـية». فتوجـه ذلـك اليـوم مـع ركـب الـزوار ومنهـم خالـه، وكان ذلـك في زمـان الربيـع والنسـيم لطيـف عرفـه مذيـع، فسـاروا إلى قريـة داريـا. وبعـد أن قـرأوا الفاتحـة لأبي سـليمان الـداراني وأبي مسـلم الخـولاني توجهـوا إلى أن وصلـوا خـان الشـيخ، فنزلـوا عـلى شـاطىء نهـر الأعـوج. ثـم ركبـوا الخيـول إلى أن وصلـوا قريـة سعسـع وتوجهـوا إلى «النقـار» ومـا زالـوا يسـيرون حتـى وصلـوا إلى القنيطـرة. (بـل سـموها وهـي بـه أحـق لبردهـا بالزنيطـرة) فنزلـوا في خانهـا المعهـود يقاسـون مـن شـدة بردهـا المشـهود. ويصـف الشـيخ ليلتـه فيقـول (وكنـت قـد مـددت فيهـا وطـاء للمنـام فغبـت حصـة وجئـث فوجدتـه كالمسـقي بمـاء الغـمام). فسـأل حالـه فأجابـه أنـه مـن النـدى. وبعـد ذلـك اعتلـوا ظهـور الـدواب وسـاروا فنزلـوا بمـرج أخـضر ذا عطـر فائـح ونـوار أزهـر إلى أن أشرفـوا عـلى (أبي النـدى) في رأس ذلـك الجبـل، وقـد (شـاب مـن الـرأس لمـا بالثلـج انجبـل). ثـم ولجـوا الغابـة ذات الثغـور المهابـة واجتمعـوا فيهـا بحاكـم القنيطـرة ومعـه نحـو العشريـن مـن الخيالـة بأيديهـم الرمـاح الردينيـة الماهـرة في علـم السياسـة والسـيطرة، فرجـع القفـل مبـدأ فأمرهـم باجتـماع خوفًـا عليهـم مـن غائلـة البغـاة القطـاع. فسرنـا إلى أن أشرفنـا جـسر بنـات يعقـوب ولم نـزل نهبـط في ذلـك الجـسر هبطًـا في انحداراتـه الوعـرة الصعبـة خبطًـا إلى أن وصلنـا الخـان. وقـد قـرب وقـت العـصر وحـان. ثـم خـرج إلى افنـاء ذلـك الجـسر البديـع والرحـض الأريـض الـذي لشـذاه يذيـع، وشرب ذلـك المـاء الدافـق وشـم عطـر النسـيم الـذي في جنباتـه خافـق. وصعـد بعـد ذلـك إلى الخـان وبـات وهـو يحيـط المـكان والسـكان مـن طـوارق الإنـس والجـان، ثـم مـر عـلى ذلـك الخـان وقطـع الجـسر فـوق النهـر الجـاري.

وسـار مـع الفجـر يطلـق الطـرف في ذلـك الربيـع الفائـح، والزهـر الـذي بشـذاه المسـكي بائـح، يسـبح تـارة ويذكـر اللـه أخـرى، ويختـم كل يـوم دلائـل الخـيرات وغـير ذلـك مـن الأوراد، إلى أن لاح لـه جـب صاحـب الجـمال الباهـر السـيد يوسـف الصديـق. وكان الجـو قـد أطبـق بالسـحاب وفتحـت للأمطـار مـن كل جانـب الأبـواب ومـا أدرك خـان ذلـك الجـب اللطيـف، إلا وقـد عمتـه رحمـة اللطيـف. ثـم صعـد إلى سـطح ذلـك الخـان، وأخـذ في قـراءة السـور وبـات في أطيـب عيـش إلى أن لاح الفجـر، ورأى عـلى البعـد قبـة يقـال إن فيهـا رجـلًا يسـمى عبـد اللـه مـن أهـل المكانـة والقربـة. وفي طـرف الجـب عـلى البعـد بركـة مـاء واسـعة الجوانـب تنتفـع بهـا المـارة، مـن الأقـارب والأجانـب. ثـم سـار يقطـع المفـاوز والوهـاد، إلى أن أشرف عـلى المنيـة في أول النهـار.

ومـرّ عـلى حافـة تلـك البركـة فـرأى حجـر النملـة «وهـو حجـر أسـود قـد نخـره النمـل يتعجـب منـه في الجملـة. يطلـع ويدخـل في أوكاره.»

ومـا زال وصحبـه يقطـع الفيـافي إلى أن وصـل عيـون التجـار وكان قـد نعـق في الخـان بـوم الخـراب وقـارب أن يسـاوي الـتراب وبداخلـه جامـع لطيـف متسـع الاكنـاف لم يدخلـه في حالـة الذهـاب ولكـن تيـسر الوقـوف عليـه في الإيـاب. وهـذا الجامـع والخـان عـمارة المرحـوم سـنان باشـا الوزيـر. وبـات تلـك الليلـة ولمـا أصبـح الصبـاح سـار مـع الركـب يقطـع متـون الصخـور وبينـما كان يسـير ضحـى في تلـك البقـاع «إذا بمـردف ومعـه آخـر مـن القطـاع فعـرف الركـب أنهـم طليعـة فاجتمعـوا وأطلعـوا المكاريـة البديعـة حتـى مـلأوا تلـك الصحـراء مـن ضربهـم وأعلمـوا الكامنـين بشـدة بأسـهم وحربهـم». وبعـد أن قطعـوا ذلـك المـكان المخـوف حمـدوا اللـه عـلى السـلامة.

وصـل جنـين (ذات القلعـة والحصـن الغـير حصـين وأطلقـوا الـدواب ترعـى في ذلـك المرعـى الخصيـب). ثـم يقـول: «ولقـد أخبرنـا بعـض الرفـاق أن

الطريق في غربها قطاع تخيف فما تركنا الحصن مع المشيئة حتى ذكرنا أسمه اللطيف ستة عشر ألف وستمائة وأحدى وأربعين مرة» وكان يفعل ذلك في بعض المراحل التي يخبر فيها أنها مخوفة للنازل والراحل. وبات تلك الليلة إلى الصبح وركب ظهر دابته يقصد نابلس بين تلك الروابي وقد فاح فيها زهور لا يماثلها ند ولا كافور. والتقى الركب مع جماعته متوجهين إلى جنين اللماعة فانفرد منهم صبي صغير، وسلم على الشيخ سلام الرجل الكبير. فتعجب من انفراده عليه السلام وحمد الله العلام. ولم يزل الركب يخب الأرض إلى أن أشرفوا على وادي (الصغير) فقابلهم بعض أشخاص وطلبوا من المكارية الغفر بوجوه كلحة لا يأخذها وجل ولا خفر. فأخبروهم أنهم أعطوا ذلك لغيرهم من الغفرية. فلم يرضوا إلا بالأخذ ثانيًا لشدة ما هم عليه من الحمية. ثم إنهم أوقفوا القفل مرارًا وأخذوا منه على سبيل الرهنية حمارًا. وأرادوا أن يأخذوا بعض أثواب من التجار، فأخذت المكارية منهم بندقية ورموهم بالأحجار، إلى أن فروا وطلبوا النجاة بالذل والصغار. وبعد حصة لحقوا بالقافلة وآتوهم بالحمار وردوا ما أخذوا من بعض الناس وأخذوا المكحلة ورجعوا بصفة الإفلاس. ولما بلغ حاكم نابلس فعلهم الشنيع أرسل إليهم بعض الجند ولم ندر بما قابلهم على ذلك الصنيع».

ثم سار حتى وصل وادي نابلس الخصيب، وشاهد ما حواه من العجب العجيب، فرأى طواحينه الدائرة، ونجومه وأزهاره، ونزل مع خاله عند عين ماء كأنها زلال فشرب وحمد الله. ثم دخل بعد ما نزل خارجها وألقى السلاح والعدة. فدعاه بعض أصحاب خاله إلى دارهم فذهب. وكان مراد الركب أن يقيم في تلك الأراضي الخصيبة فوشي به للحاكم فغرموا بعض دراهم فقلقوا لذلك ورحلوا في ثاني يوم.

ثم سار متوجهًا إلى القدس إلى أن وصل قرية سنجل فنزل في ساحة في أسفل البلد، وهي في علوة لا يرقى إليها كل أحد، فأدى فرض الوقت

بالقصر. وأخبر بلصوص، ولكن لم يذهب منه ومن صحبه بحمد الله عقال، ولكن لصوصها على ما قيل كلصوص الري في المهارة ما فيهم ما يقال. ولما أصبح الصباح همت القافلة للرحيل فساروا حصة على جادة الطريق وصلى الصبح في مرج طيب عبيق حتى وصل قرية البيرة. ثم صعد العقبة وأشرف على بيت المقدس ونادى هناك من معه من الغلمان فرجًا بما بدا حيا الله ما بان، فأخذ لذلك الشيخ الطرب والاهتزاز. ولما قرب الشيخ جراح قرأ له

الفاتحة، فلما وصل قريبًا من باب المدينة وجد بعض أهلها قد خرجوا للتفرج على الركب من الباب الشامي.

ولما أرادوا دخول المدينة طلبوا الأذن ممن حلها من أهل المراتب المكينة كما هو المطلوب من كل داخل وخارج ليكون مطلبه المطلب الناجح. ولما صدر الإذن دخلوا المدينة بالذل والسكينة ونزل هو وخاله في دار قريبة من الحرم عند رجل شريف من أهل الكرم، يقال له السيد محمد الطواقي.

وكان أهل بيته يكرمونه وخاله. وكان هذا المكان منزل الخال من القديم. ولما أرتاح قام وخاله لزيارة الحرم ودخل الصخرة وصلى المغرب والعشاء وعاد إلى الدار. وفي اليوم الثاني زار المسجد الأقصى. وكان في أغلب الأوقات يجلس في الدار يكتب تارة ويطالع فيها معه من الكتب خوف الاشتهار.

ولم يصحبه في تلك الأيام إلا «أخونا الفاضل الأديب الماهر المناضل أحد التجار المعتبرين السيد علم الدين العلمي» فكان يتردد على الخال ومنهم الشيخ السالك طريق السادة الخلوتية الشيخ يحيى الدجاني خادم نبي الله داود، وقد دعاني إلى دار الضيافة المعمورة التي بامدادات الخليفة سيدي داود مغمورة». ولبث يتردد على هذا المقر إلى أن حان الموسم الكليمي وتوجه الركب إلى ساحته، وسبقهم إليه

السيد علم الدين ودعاه لأن ينزل في خيمته، فتوجه وكاد يطير بلا جناح، ومر على قرية سيدنا العزير أي أليعازر (العيزرية).

وسار يقطع السباسب، إلى أن لاحت قبة الضريح واعتراه صداع زائد فتلقاه صديقه وخاله السيد محمد النسيب الأمام بالمسجد الأقصى. ولما صلى الظهر وأكل ما تيسر ظل كذلك إلى أن زار المقام ورفع أطراف الستر ووضعها على رأسه فزال صداعه في الحال، ومكث في زيارة الكليم ستة أيام، قضوها في تلك المروج وفي قراءة دلائل الخيرات وكان القارىء لها صديقه السيد محمد الإمام.

وفي اليوم الثاني اجتمع بشيخه الشيخ محمد الخليلي ففرقوا الرابعة وقرأ دعاء الختم صديقه خليل الإمام بالمسجد الأقصى. فبكى وأبكى. وكانت الفقراء بالطبول والإعلام ترد كل يوم أفواجًا على المقام.

وفي ساحة الكليم بئر ماء معدة لجمع مياه الأمطار يستقي منها الزوار، وقد سعى في تعميرها وتسليك مجاريها الشيخ محمد المكنى بابي فردة، وله ميزات عدة منها رواق المغاربة المنتفع به الآن. وماء تلك الآبار يحرق الطعام وينفع الجرب والحكة لأن أرضه كبريتية الأجرام، وبذا أحجارها توقد ويجعل منها تنورًا فيتأجج ويتوقد. وأخبرني أي الشيخ محمد الخليلي المذكور «إن كل ما يقع في الموسم من دق ولعب مباح لا يؤاخذ به أهل الموسم، ويقع لهم بذلك السماح إلا إذا وقع فساد، في تلك الأغوار والأنجاد، فإنها تثير عجاجة تقلع الخيام وترمي القدور وتريق الطعام حتى أن أهل الموسم لما تكرر هذا الأمر تيقنوه حتمًا، فتتصارخ الناس بالدعاء على الفاعل ويشفون غيظهم شمًا. وجيء بالخيام في بعض السنين عد هذه الفعلة المقبحة تقبيحًا من قرية بعيدة عن المقام نحو ساعتين يقال لها أريحا. ولم تقع في السنة التي كنا بحمد الله تعالى فيها. بل وقعت كما أخبرني بذلك الخال في التي تليها».

وقد أخبره السيد علم الدين كان الله له خير معين «إن بعض التقاة الأخيار أخبره أن بعد مضي الزوار، من تلك الساحة الانيسة والبقع المباركة النفيسة تأتي طيور بيض بمناقير طوال (يقال لها الرخم) يأخذون بها القاذورات ويرفعونها من تلك المحال ويعقبه لا محالة غمامة هطالة تغسل تلك الأرض بالطول والعرض». ولما اعترى الشمس الاصفرار خرج يتهادى على ظهور تلك الجبال حتى أشرف على بركة سيدنا لوط التي خيطت جنباتها من النبات بخيوط.

ثم ذهب ثاني يوم لزيارة «الراعي»وأعاد له الزيارة ويقال إنه راعي الكليم. ولما أصبح الصباح تركوا المقام والعين تسح كعين، فوصلوا العيزرية ظهرًا. ودخل من باب حطة. فزار الخليفة الأعظم (نبي داود) لما أشرف على قبة ضريحه، وكذلك زار جبل الطور ومريم العذراء ثم الصخرة والأقصى. وكان في أغلب الأحيان يجلس في أحد شبابيك الأقصى العتيقة المطلة على جبل المكبر وحديقة الخاتونية وأنعم بها من حديقة ويستصحب معه الدواة والقلم ويكتب للتسلي. ثم ينظم الأشعار في مدح المسجد.

وكان يصلي في أغلب الأوقات مع الإمام الحنفي في الصخرة. وينزل في بعض الليالي إلى المغارة. وفي بعض الليالي لا يستطيع النزول (لثقل موارد الواردين من الفحول). وكان في تلك الأيام يحضر درس شيخه الشيخ محمد الخليلي. ويجلس من بعيد بحيث يسمع ما الذي به يفيد، وإذا سمع الأذان بادر للصلاة وكان يصلي خلف الشيخ المذكور الجميل في سماته محبة في تعديد أركانه وحسن قراءته وتكميل صلاته».

وكان يقرأ في تلك المدة ورد السحر للأستاذ الأفخر سيدي جلال الدين محمد البكري. وطلب منه بعض الأخوان أن يضع وردًا مناسبًا للسحر. فبينا كان عند الخال في الدكان طرقه طارق في أذنه بالتأليف، فتم تسويده في أقل من ساعة، ولما ذهب للدار أعاد النظر فيه. ولما

جـرّده وحــرره وبيضــه ورتبــه وحــبره ســماه (الفتــح القــدسي والكشــف الأنــسي) (والنهــج القريــب إلى لقــاء الحبيــب).

ثــم أنــه لمــا كان في مــا تقــدم مشــتغلًا إذ بهواتــف الــزوار تهتــف بزيــارة الخليــل. فســار مــع الركــب الجامــع وصحبــه (الغفريــة) ليوصلــوه إلى ذلــك النــور اللامــع. ومــر عــلى ضريــح أبــو ثــور وهــو شــهاب الديــن أبــو عبــاس أحمــد بــن جــمال الديــن بــن عبــد اللــه أبــن عبــد الجبــار المعــروف بالقريــش والمشــهور بــأبي ثــور. وبهــا قــبر ظاهــر يــزار ولــه ذريــة وهــم مقيمــون هنــاك. ومــما يحــكى عنــه أنــه كان مقيــمًا بالقريــة المذكــورة وإذ قصــد ابتيــاع شيء مــن المأكــول كتــب ورقــة بمــا يريــد ووضعهــا في رقبــة ثــور وســيره فيحــضر الثــور إلى القــدس إلى أن يــأتي حانــوت رجــل بالقــدس كان يتعاطــى حوائــج الشــيخ. فيقــف الثــور، عنــده فيأخــذ ذلــك الرجــل الورقــة ويقرأهــا ويأخــذ للشــيخ مــا طلــب منهــا ويحملــه الثــور إلى الشــيخ بمكانــه.

ولمــا وصــل إلى الــبرك، أنــاخ للراحــة. وهــي ثــلاث بــرك كل واحــدة عليــا أكــبر مــن أختهــا الســفلى تمتلــئ إذا حمــل الفحــل وهــو عبــارة عــن ســيل ذاك الــوادي مــع الســهل. وســاروا والخــوف يرافقهــم مــن قطــاع ذلــك الطريــق، وكلــما قطعــوا واديًــا مخوفًــا بكمــين دفــين بــدا لهــم آخــر حتــى وصلــوا قوفــين فقــرأ الفاتحــة للنبــي يونــس، ثــم أشرف بعــد قليــل عــلى كــروم أراضي الخليــل، ووصــل المدينــة ونــزل بالخــان. ثــم تحــول عنــد بعــض الخــلان.

ودخــل الحــرم، للزيــارة، فــزار المقامــات جميعهــا ودعــاه بعــض الأصدقــاء لــداره وعــاد للمســجد، وبــات في دار مأنوســه قريبــة مــن الحــرم.

ولمــا أصبــح الصبــاح بــادر للمســجد وأقــام بــه إلى المســاء بــلا عشــاء وذهــب إلى الــدار الأولى وبــات ليلــة أنيســة. وجــاءه ضحــوة النهــار بعــض الرفــاق فــزار الشــيخ عــلي البــكا، والشــيخ كنفــوش والأربعــين. وعــاد إلى الجامــع. فدعــاه بعــض العلــماء لــداره ورجــع للمحــل الأول وبــات. ثــم ســار بعــد الــوداع ومــا عــلا النهــار حتــى علــت الــزوار متــون الــدواب فرافقهــم وقــد

لاحـت لوائـح الفرقـة والاكتئـاب، والسـبب تـرك صـلاة الجمعـة وسـلوك هــذه المســالك والخــوف مــن أهــل الباديــة الذيــن لا يرهبــون اقتحــام المهالـك.

ولم يـزل يسـير حتـى وصـل إلى البركـة المعهـودة الحصينـة والنفـس عـلى فـوات الجمعـة في تلـك البقعـة حزينـة. وفي ثـاني يـوم عنـد الوصـول إلى الديـار ورد الصديـق السـيد محمـد نجـل السـيد عبـد اللـه السـلفيتي للسـلام. ومـا كان يعرفـه إلا مـن ذكـر شـيخه قاسـم بـن سـعيد المغـربي لـه. فعرفـه بنفسـه والخـال. فوقعـت الألفـة الجنانيـة في الحـال وامتـدت أغصـان شـجرتها وتفتقـت كمائـم ثمرتهـا إلى أن صـارت محبـة ونسـبًا. لمـا أتبـع في المواصلـة سـببًا.

فسـار معـه إلى زيـارة النبـي (شـمويل) ورافقهـم فتـح اللـه الدجـاني ونـور الديـن السـعدي فصـلى المغـرب وصعـد إلى سـدة رفيعـة بنيـت بالأحجـار. فطلبـوا قـراءة ورد العشـاء والذكـر ففعـل. وفي الصبـاح ركبـوا الخيـل وعـادوا للقـدس. وفي الليلـة الثانيـة أجتمعـوا في خلـوة الدجـاني في الحـرم يتذاكـرون فيهـا ولمـا مضـت مـدة فـروا مـن المحـل لغـيره خوفًـا مـن الاشـتهار. وطلـب بعـد ذلـك منـه السـيد محمـد الطريـق فأدخلـه عـلى الاسـتخارة. وتبعـه نـور الديـن في طلـب الوصيلـة بالطريـق فامتنـع خوفًـا مـن عـدم القيـام بالـشروط، وفرقًـا مـن حـل عقـدة العهـد المربـوط، فأجـاب بقبـول الـشرط والنهـي والأمـر. فأمرهـما بالكتـم دون الإشـاعة وأوصاهـما بحفـظ نامـوس الطريـق وعـدم الاضاعـة.

ثـم جـاء السـيد مصطفـى بـن عقبـة وأخـوه عبـد اللـه وطلبـا الاندمـاج في هـذا المنهـج فحصـل لهـما مـا طلبـا. وسـبق الأول وانقـاذ الثـاني وكذلـك السـيد داود وعبـد اللـه المـصري وسـليمان مـن أهـل بيتونيـا. وكان يجتمـع معهـم في الخلـوة النحويـة ويقـرأ الاوراد.

أمـا ورد السـحر فكانـوا يقرأونـه بعـد غلـق الأبـواب. ثـم عمـل رياضـة معهـم تنـوف عـلى العشريـن، وأراد تكميـل الأربعـين فعاقـه ذلـك بعـض المعينـين. وكان يقـرأ لهـم شرح الحكـم للتعـزي حتـى بلـغ قريبًـا مـن النصـف فمـرض المعيـد السـيد محمـد. ومكـث في تلـك الخلـوة ثلاثـة أشـهر وأيـام، لم يكحـل عينـه بمنـام.

وكان يـتردد هـو وجماعتـه عـلى مقـام النبـي داود أو طـور زيتـا وكان يبيـت في الأسـعدية، التـي بناهـا جنـاب المرحـوم أسـعد أفنـدي مفتـي ديـار الـروم بإسـم الشـيخ محمـد العلمـي المدفـون فيهـا. ثـم يذهـب لزيـارة سـلمان الفـارسي فيـزور رابعـة، فبـاب الرحمـة، ويخـص شـداد بـن أوس وعبـادة بـن الصامـت. وذهـب معهـم إلى زيـارة العزيـر عليـه الصـلاة والسـلام (العيزريـة) وبـات عنـده ليلـة بدريـة، ورافقـه المحـب المجـذوب الشـيخ عبـد اللـه القـربي الحنبـلي، وشرعـوا في الذكـر. «وكان بعـض أوبـاش القريـة الجالسـين في صـف النعـال، مرادهـم الأذيـة بأنفـس دنيـة، ولـو بسرقـة النعـال فدفعهـم اللـه بحولـه وقوتـه عـن الاغتيـال، ولم يثبـت إذ غلـب النعـاس معـي في السـهر إلا الأخ السـلفيتي، ونـور الديـن السـعدي. ثـم عـادوا للقـدس. وتوجـة لزيـارة سـيدي شـمويل (النبـي صموئيـل) مـرة أخـرى عـلى الأقـدام وخلـع النعـال لـلآدب والاحـترام، مـن نصـف الطريـق إلى ذلـك المقـام، وبـات عنـده ليلـة. وقصـد بعـد ذلـك زيـارة (رأس أبي زيتـون) وسـار راكبًـا مـتن الخيـل فلـما وصـل بيتونيـا أكرمـوه غايـة الإكـرام لأن أولاد الدجـاني صحبـوه للدلالـة عـلى المقـام. وهـذه القريـة وقـف للصخـرة ذات الاحـترام ولهـم فيهـا شركـة عـن جدهـم.

وزار والـدة أم الشـيخ أحمـد الدجـاني. وصعـد إلى المرقـد الـذي حلـت فيـه. ورأى عندهـا عبـدًا أسـود مـن المجاذيـب ينفـر عـن النـاس نفـار الوعـل أو الذئـب، وأخـبر أنـه يوقـد النـار حتـى تعـود جمـرًا وينـام فيهـا حتـى تخمـد بنفسـها ولا يألـف زيـدًا وعمـرًا. وأقامـوا في المقـام وعزمـوا عـلى البيـات. ويقـول «لمـا آوى الليـل كبيـت وفقدنـا مـن لوازمنـا الزيـت» فـدار الأخـوان

على كيزان النذور فلم يجدوا فيها ما به يستصبح. فقال أعيدوا النظر عسى الفتاح يفتح فوجدوا إحداها ملانا بالزيت الطفاح. فاوقدنا منه حتى لاح الصباح. ثم عادوا للربوع القدسية.

وكان قد وضع رسالة في أدب الخراقة سماها «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية» وبقيت في المسودة يرجو بياضها في الشام لما يحل غياضها. وسود وقائع شيخه المرحوم الشيخ عبد اللطيف وسماها «الكوكب الثاقب في بعض ما لشيخنا من المناقب».

وعزم على زيارة الإمام الهمام علي بن عليل فصلى العصر في الحرم وسار مع عشرة أنفار فوصل في الليل (بيت أكسا) فقابلهم أهلها بالاكرام. وكان أحد مشايخ فقراء هذه البلاد سبقهم لأجل القرى وتحصيل الزاد ومعه المزاهر والإعلام بقصد الشهرة والإعلام.

وبات في ناحية وهم في أخرى، وجاء في الصباح يسأله عن أحوال السكوت عنها أحرى. فأخذ السيد محمد يذكر عن كيفية إرشاده فقال: «طريقتهم إذا جاءهم فقير وأخذوا عليه العهد الحظير يقول له النقيب أجلس مريدًا وقم نقيبًا فيفعل ثم يقول له أجلس نقيبًا وقم شيخًا فيفعل ثم يقول له أجلس شيخًا وقم خليفة فيفعل ثم يدقون الطبول على رأسه ويقرأون له الفواتح ويجيزه الشيخ بالإرشاد. فهل لهذا الفعل من سند معتمد؟» وقد جاءه فقيه بيت أكسا بمجموع رسائل فإذا هي تأليف سيدي عبد الوهاب الشعراني في الكلام على أرباب الطبول والإعلام والكشف عن أحوالهم وبيان زائف أقوالهم.

ولما أصبح الصباح أكلوا ما تيسر وأخذوا يقطعون السهل الأغبر، ذا الوجه الأخضر، والزهر الأحمر والأصفر وعزموا على المبيت في قرية (سلفيت). ولما تراءت على البعد للعين وصلوا ساحة تلك العين فشربوا من مائها الفائق ماء العين، وقبل الوصول إليها زاروا الشيخ تقي الدين صاحب القدر السامي المسكين. وجاءهم جمع الأحباب

ونزلـوا في جامعهـا. وكان الشـيخ قاسـم المغـربي المقـدم أقـام في المسـجد مـدة أشـهر. وباتـوا تلـك الليلـة يتلـون الاوراد وسـاروا في الصبـاح عـلى الخيـل العـراب يقطعـون تلـك المهـاد حتـى مـروا عـلى قرية(عورتـا) فـزاروا فيهـا قـبر السـيد المفضـل وعليـه شـجرة خـروب، فأكلـوا منهـا تـبركًا وزاروا سـيدنا المنصـور وهـو في داخـل مسـجد مهجـور. ثـم أمـوا جهـة (جماعـين).

ونزلـوا في دار أعدهـا أهلهـا للضيافـة فـإذا الصديـق الشـيخ يحيـى الدجـاني وباتـوا في دار واسـعة الاكنـاف، وقـرأوا الاوراد، وأطلعـه الصديـق المشـار إليـه عـلى كتـاب كان بـين يديـه فيـه ذكـر رحلـة الشـيخ أيـوب، فـسر بـه كثـيرًا. ومـا عـلا النهـار حتـى هـان صعـب ووصـل بمـن معـه إلى أراضي بنـي صعـب. ونزلـوا ليجتمعـوا بالشـيخ مقلـد في قريـة حجـة، مـن أجـل أخـذ مرسـوم لأهـل الطيبـة كالسـند والحجـة يأمرهـم فيـه بـأن يوصلوهـم إلى الحـرم (سـيدنا عـلي) بـن عليـل فأجـاب إلى المطلـوب، وسـأل عن أحـوال كان منهـا عـلى رجـة، لسـبب خـوف عـم الجـوف فـاورث الفـم فيـه زجـة. وهـي توفـر دواعـي الأخبـار، أن الوزيـر نصـوح باشـا(والي الشـام) قامـع الفجـار، قـد حـاصر قلعـة الكـرك ذات الحصـن الشـامخ المنيـع الأسـوار، فقـال الشـيخ مقلـد إن فتـح هـذه القلعـة بعـد هـذا الحصـار، فإنـه لا يعوقـه شيء في البـلاد الشـامية. وكان معهـم الشـيخ عبـد اللـه القـربي وكان مـن عادتـه أن يقصـد الشـيخ مقلـد، فسـأله عـن عمـره وهـل هـو أكـبر منـه، فأخـبره أنـه تجـاوز الخمسـة والثمانـين عـلى الظـن منـه لا التعيـين. وفي الصبـاح حركـوا الـركاب إلى (الطيبـة) ونزلـوا في جامعهـا وعرضـوا عليهـم مرسـوم الشـيخ (مقلـد الجيـوسي)، فأجابـوا مـن غـير توقـف بالسـمع والطاعـة ومـشى معهـم بعـد العشـا ثمانيـة أنفـار ليقطعوهـم الغابـة فلـما قطعـوا أكـثر مـن ثلثـي الغابـة، أخـذوا يسـمعون دوي البحـر، فنزلـوا يسـتريحون وقامـوا بعـد غفـوة حتـى يدركـوا صـلاة الصبـح في الحـرم. ثـم لاح الفجـر فـما كان إلا قليـل بعـد المسـير الجميـل حتـى سـمعوا صراخًـا فحصـل اضطـراب ثـم تبـين أنهـم مـن أهـل النزلـة أصحـاب، ولم يطـل سـيرهم وهـم يسـمعون هديـر

البحر يزيد حتى أشرفوا على ذلك المربى الزاكي والمرتع الخصيب المربع البديع الذاكي. فأسرعوا للصلاة عقب الزيارة. وجلس الشيخ إلى الشباك المطل على البحر الزاخر يمتع نظره ثم نزل إلى الشط وهو في غاية الانشراح. ثم زار أهل التربة ثم تربة أخرى قرب السور.

وكان الظهر قد دنا وإذا بوراد يحثون بنعال خيولهم الأرض حثًا، وكانوا قد جاءوا من زيارة النبي روبين وأخبروه أن وراءهم ركبًا، ومعهم الشيخ نجم الدين (الخيري) مفتي الرملة. وغب قليل تتابعت الزوار من كل جليل وأجل حتى غص بهم المحل. ونصبت الخيام واصطف أهل المزاهر والأعلام وأجتمع بجناب الشيخ نجم الدين نجل العلامة خير الدين مفتي الرملة حالًا. وبعد التحية والسلام بقليل جيء إليه بزنبق برّي طيب الرائحة فقال إن الوالد الأسبق قد صرح بتشبيه هذا الزنبق وأنشد:

وزنبقة قد أشبهت كأس فضة

برأس قضيب من زمردة عجب

سداسي شكل كل زاوية به

على رأسها الاعلا هلال من الذهب

وأقام في تلك الرحاب إلى العشاء. وبعد الصلاة قاموا ليقطعوا الغابة ليلًا فاعتلوا خيولهم فأتى دولابًا يملأ كيزانًا وأكوابًا فأقاموا عنده. وقطعوا ما بقي من مروج تلك الأرض حتى وصلوا نابلس المحروسة ذات الربوع والطلول المعمورة المأنوسة، ونزل خانها المعهود، المعدود قديمًا لأهل الورود. وأقام أربعة أيام، يزور الصالحين الكرام ويتنزه في رياضها فيتذكر الشام وقد هزه الشوق فقال:

شوقي يزيد لكم اهيل ودادي

ويثير حر الحب بعد النادي

يا من رحلنا عنهم جسمًا بلا

قلب وقد نزلوا صميم فؤادي

إن غبتم عن ناظري ما بنتم

عن خاطري أبدًا ليوم معادي

ثم عاد إلى القدس وأقام في خلوته على العادة، وجاءه صديقه الشيخ محمد المكي أبو فردة، تلميذ الشيخ علي عزون، تلميذ الشيخ قاسم السفياني بللوشا. وسبب تكنيته أنه كان يلبس فردة على ظهره.

ودعاه الأخ نور الدين السعدي، وأدخله التكية المولوية، وكان ممن أخذ الطريق وانتسب لهذه الطائفة العلية، الحاج علي شعال السلطانية، وطبّاخ التكية الخاصكية، كان يبتدئ بالورد من دار الاشتغاله بالشغل والطبخ ويختمه وهو مشتغل باطواره. وكنت أرى عليه أثر المحبة غير أن هم العائلة أتعب قلبه. وكان الشيخ قد شرع في شرح «المنبهجة في الطريقة المنبلجة» وفي النية شرح الورد.

ثم عزم على الرجوع إلى دمشق، وطلب الأخوان وصية، فكتبها لهم واسماها «الوصية الجلتية للسالكين طريقة الخلوتية». وممن أخذ الطريق في الجملة، الحاج محمد أبن نسيبة. وتخلف خاله، فودع الصخرة والأقصى وسار معه إخوانه إلى رؤوس المشارف وكادت تطير القلوب فرقًا عند الوداع، فبكى الشيخ بعد أن ودعهم مرارًا بدموع مدرارة وسار يقطع الفيافي بركب صغير إلى أن دخل الشام ليلة النصف من شعبان. ولم يطل مقامه في دمشق حتى عمر الخلوة الثانية في المدرسة البادرائية، وبعد العمارة ألف فيها «الدر الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق» وأرسل للأخوان في القدس نسخة منها. وأرسل له الشيخ مصطفى أبن عقبة كتابًا يطلب فيه رسالة توضح شروط الخلوة ولوازمها فأجابه الشيخ لطلبه. وبعث إليه برسالة أسماها «هدية

الأحباب فيها للخلوة من الشروط والآداب». فيكون قد أقام في رحلته هذه الأولى نحو سبعة أشهر.

الخطرة الثانية

«الإنسية للروضة الدانية القدسية»

وبعد أربع سنوات حن الشيخ إلى ربوع القدس ثانية فعزم على الزيارة مرة ثانية. وأسمى الرحلة القدسية هذه ذات العيون النرجسية (الخطرة الثانية الإنسية للروضة الدانية القدسية). وقبل المسير، جاء الخبر أن عرب الصقر أهل الضرر منعوا السبيل السلطاني، فتوجه إلى زيارة الشيخ عبد اللطيف بن حسام الدين البدر كياني والنجم الشعشعاني وجلس عند ضريحه «وعرضت عليه ما سمعته أذاني ففاحت رائحة عطر سيسباني»، ففهم إشارة شيخه أن الطريق فيه أمان.فودع أهله وتوجه في أوائل شعبان المبارك سنة ١١٢٦ هـ. ورافقه في هذه السفرة الحاج إبراهيم أبن حسن الدكاني والولد الأنجب الأرشد إسماعيل بن رجب وكل منها حرستاني. (وحرستى) هذه بلدة الصاحب الثاني لإمامنا الأعظم مملي القناني.

وكان مؤجر البغال للركوب وحمل الأثقال رجل يقال له العرمان فتوجهوا معه إلى قرية عرطوز «القصد أن يجوز إلى مجتمع القفل، كي للصفا نحوز». ولما واجه السيد حسن الراعي قرأ له الفاتحة. ونزل في القرية السائلة المياه لا المحصورة، وأجتمع لديه نفر من القافلة.

وبات يتسامر مع الإخوان. وعند الصباح تحرك الرفاق إلى الرحيل وحملوا وتشاوروا ونحو الجبل وجهوا وجه التعويل فشاورني العرمان في سلوك الطريق السلطاني والتحويل عن السبيل الفوقاني، لإنه متعب لكنه بالأمان يرغب. فقلت ولو لم تسر مع الرفاق وتأمن في سيرك من الاشفاق، فقال أنا متوقف على أمرك الآن فقلت لما رأيته متوكلًا على

الرحمـن، سر يـا عرمـان مصحوبًـا بالسـلامة والأمـان. فوجـه وجـه بغالـه ومسـك الجـادة السـلطانية، ولم يلحقنـا إلا نفـر يسـير لا يعـد في العـير ولا النفـير. وفي «أم الشراطيـط» التـي لا تسـلم غالبًـا مـن التخبيـط، واجهـه ثانيًـا حسـن الراعـي فقـرأ لـه الفاتحـة، فوصـل سعسـع فارتـاح قليـلًا، وسـار في نصـف الليـل عـلى الطريـق الوسـطي الاعتـدالي إلى القنيطـرة، فـإذا خانهـا خـالي، فعمـد إلى المنصـورة، وقـد عراهـم التعـب، فأخـبر أن عـين البلـدة قبـل قدومـه اسـتقى منهـا أحـد عـشر فارسًـا وإنهـم مـن الصقـور، وقـد سـلكوا النهـج السـلطاني، فجـاء رجـل لم يـدره وقـال للعرمـان، إنـه يعـرف طريقًـا ثانيًـا فأتـاه العرمـان وأخـبره. فأشـار عـلى العرمـان بإتباعـه. وسـار إلى أن وصـل الجـسر فوجـد فيـه جنـدًا شـيطانيًا يتسـلطون عـلى المـارة فهـم أهـل أذى عـدواني، فتعـدى الجـسر إلى سـهل لـدى قريـة يرتقيهـا العـاني، فاشـترى منهـا مـا يلـزم وبـات هـو وجماعتـه في أرض صفـد. واسـتمروا في السـير إلى الجـب اليوسـفي فلحقتهـم القافلـة وسـاروا جميعًـا إلى المنيـة، ومنهـا إلى عيـون التجـار، فجنـين، ومنهـا إلى نابلـس المحروسـة، ومنهـا إلى البـيرة المطموسـة. وسـبق أشـخاص إلى المدينـة وأعلمـوا بعـض الإخـوان، فخـرج جمـع منهـم عنـد رؤوس المشـارف للاسـتقبال، فـزار الشـيخ جـراح، وسـعد وسـعيد، وأسـتاذه صاحـب البلـدة سـيدي داود، والتأييـد عليـه وعـلى ولـده الرشـيد. وسـأل ممـن وفـد عمـن تخلـف ومـا قصـد فقيـل إنهـم تألفـوا عـلى الغـير ولـذا تخلفـوا.

وكان السـيد أحمـد القـادري البغـدادي نـزل الخلـوة الرصاصيـة، التـي كان نـزل فيهـا في الخطـرة الأولى، فكـثرت الـوراد وزاره السـيد أحمـد، ورد لـه الزيـارة. وممـن جـاء للسـلام مـع إخوتـه الشـيخ أحمـد الموقـت. ودخـل شـهر الصيـام ودعـاه بعـض المحبـين لضيافتـه في الحـرم، وأكـثر فيهـا مـن دعـوة المشـايخ وأربـاب الخـدم، وكان منهـم الشـيخ أحمـد الموقـت، فاختـلى بـه الشـيخ، وعاتبـه عـلى عـدم مجيئـه بعـض يـوم أو ليلـة. فأعلمـه أن الحيـاء يمنعـه.

وأنتقل إلى خلوة السيد جار الله القريبة من مصفة العوافي، لئلا يعكر على شيخه الشيخ محمد الخليلي المصافي، بالذكر والاوراد الصبحية فيما يستعمله من النصائح الحكمية، بعد الصلاة الفجرية، وكانوا يتعاطون أمر الزاد في دار السيد مصطفى بن عقبة. وكان خلق من الخواص والعوام يحضرون لاستماع الورد منهم الأخ الشيخ أحمد. وممن دعا الشيخ وكرر الدعوة الشيخ نور الدين الهواري وقاضي البلدة كتخد زاده. وفي أواسط شوال قدم القدس الوزير المرجب رجب باشا واليًا مدبرًا «وفيه توجهنا صحبة السيد أحمد القادري المقرب إلى زيارة الكليم. وكان معي الأخ الحاج إبراهيم».

وكان الأخ الشيخ أحمد لازمني في الخلوة البيرمية الصغيرة، حين هجم البرد ودخل الشتاء. وكان الحاج محمد نسيبة قد أتى من مصر فنقلنا (لدار الاوضة) واقتصرنا بالناس إلا من يقصدنا من أخوان . وممن جذبه نظره إلينا الشيخ عبد الحق نجل الشيخ نور الله الجماعي «وغيره من إخوان وأحباب وأخدان وموقتنا والهواري لم يقطعا التردد عن داري». وتردد عليه إمام الوزير محبه إبراهيم أفندي الخطير وطلب الوزير المذكور الجمعية فأجاب بشرط أن تكون في المغارة الألمعية. ويقول الشيخ «ومنها تعلق قلبه وأزداد بنا حبه».

وتشاغل الشيخ في تلك الأيام في كتابة «الضيا الشمس» وأمر الأخ الحاج سلامه بنسخ ما يكتب منه. وكان يقابل ما يكتب ليلًا ويزيد فصارت المبيضة مسودة. وكان الهواري يأتيه وربما ساعد وما تباعد. وبيض فيها «الوارد الطارق واللمح الغارق» وجمع في هذه الدار «جمع الموارد من كل شارد» وكان وهو في الديار الشامية يكتب ما عليه في أوراق والبعض يبقيه والبعض يلقيه في النار للإحراق فانتقى ما جمعه وقد توعك منه المزاج ثلاثة أيام لدم هاج، فجاء الرئيس محمد بعلاج مناسب وحصل الابتهاج. وحين أشتد البرد وأمتد سح الأمطار طلب الإخوان كبارا وصغارا دخول الخلوة. فأجابهم لذلك، مدليًا على قوس العقد

الـذي في إيـوان الـدار، وأمـر الطـلاب أن ينفـردوا كل واحـد في بيـت خلـوة ولـو باحـرام أو إزار. وممـن ترجـى الدخـول الولـد الملحـق بأهـل الحـق الشـيخ عبـد الحـق. فأقـام بيـت خلوتـه عـن يمينـه وجعلـه خازنـه وأمينـه، والسـيد أحمـد بـن أبي النـصر رتبـه أمامًـا في ذلـك القـصر، وجعلـه عـن يسـاره، وأمـر الأخ الحـاج إبراهيـم أن يتقيـد في الاوراد. وأن يغلـق البـاب مخافـة القصـاد. ولا يفتحـه إلا قبيـل الغـروب لأجـل طبيـخ الحريـرة. وأن يحـضر عقـب العشـاء وانفضـاض الـوارد عـن الخلـوة البيرميـة ليسـمعهم قصائـد إنشـاد. فـكان يجـيء ويشـدو فيطـرب الجماعـة ويطلبـون سـكان العـراق ونجـد. وإذا راق الليـل طفـح مـن الـسرور الكيـل.

ثـم إن صديقـه الشـيخ أحمـد بـن الشـيخ محمـد الموقـت اشـتهى دخـول الخلـوة في الاوضـة الصغـيرة، فتبعـه الشـيخ إسـماعيل والشـيخ نـور الديـن، ولم تسـع الخلـوة غـير الأربعـة، وصـار البـواب أبـن نسـيبه، ووقعـت عليـه في الأمامـة القرعـة، وكان الطالـب عـلى اليمـين، ونـور الديـن عـلى الشـمال، والولـد إسـماعيل في القرنـة الثانيـة.

وعنـد مـا انتصـف ذو الحجـة توجـه الوزيـر لمعـان لملاقـاة الحـج العطـير عـلى طريـق معـان وزار في مسـيره الخليـل. ورأى الشـيخ الوزيـر في المنـام وقـد خلـع عليـه ثـلاث خلـع عظـام، فأخـرج لـه مـن عبـه السـيوف الحـداد. وأمـره أن يحتفـظ بهـا. ولمـا أفـاق غلـب عـلى ظنـه أنـه يحـارب (العـرب) وأنـه في خطرتـه يغلـب، فـلا يغلـب، لأن السـيوف صـارت في يـده. فـكان مـا ظنـه الشـيخ. إذ أخـبر بذلـك لمـا عـاد مـن سـفرته بعـد مـا نزلـت الأمطـار وعـم الربيـع وجـه الأرض. وأخـضر الغـور وأزهـر.

تحـرك الشـيخ للزيـارة الخليليـة صحبتـه رفقـه، فسـاروا ودهمهـم قطـاع الطـرق دهمـة متعبـة عنـد القيقبـة ولكـن اللـه سـلم. ونـزل في حاصـل الخليـل، ووضـع في هـذا الحاصـل رسـالة:«الصحبة التـي انتخبهـا الخدمـة والمحبـة» وتمـت في صفـر سـنة ١١٢٧هــ .

وشرع في كتابة رسالة «نظم القلادة في معرفة كيفية اجلاس المريد على السجادة» وشرع في خطبة كتاب سماه «فيض الجليل في أراضي الخليل» ورتبه على مئة وخمسين بابًا ومقدمة وخاتمة، وعرض الفكر على كبير الجماعة من أهل الخليل فاثنى عليها. وممن أخذ الطريق عنه إبراهيم الخليلي والحاج دياب والشيخ محمد القيمري والطرعاني وغيرهم. وكان يقرأ الورد السحري في الحضرة وكان الحاج إبراهيم ينشد قصيدة في حماة الغار مطلعها:

أيا ساكنين الغار والمنزل الاحمى

أغيثوا معنى من لظى شوقه أحمى

ولم يجتمع في الخليل بالشيخ أبي زيتون بل بالشيخ محمد أبي جاعد وبعد أن ودع حماة الغار وأهل الجود والكرم بات ليلة الثلاثين في قرية سعير (سعير) وكانوا نفرًا قليلًا. ونزل على قرن البرك، وقد لطف الحق بهم دارك وأدرك. وصلى الظهر في بيت لحم ودعي إلى البيات على أرز ولحم فامتنع. إلى أن وصل القدس.

ولما نمى الربيع، عزم على زيارة السيد الكليم، وكان عدد المتوجهين سبعة عشر نفرًا، وخشي الصداع كالمرة الأولى فأسرع بالزيارة، وكان في خلوة تحتية ولصيقة في أخرى، الشيخ أحمد صحبة أخيه الشيخ محمد ومعهم الشيخ عبد المعطي. والسيد خليل الإمام بالأقصى في أخرى. وتأخر عنهم شيخه الشيخ محمد الخليلي وصحبهم مغربي خفيف مقرى هو سيدي عبد الله الشريف. وأقاموا في المقام ثلاثة عشر يومًا وزار في رجوعه نبي الله العزير.

وبعد ليال توجه لزيارة «الخليفة» داود. وكان الوزير المشار إليه فتح بابًا في الزيارة، وعمل الستارة، وأحيا وقف الخليل وأدار سماطه الجليل، وعمر نبي الله شموئيل، وقصر من الصخرة المغارة وفرشها وأرخى عليها ستاره.

ولما دخل فصل الربيع أنتقل إلى البيرمية وصار يبيت في الخلوة الصغيرة، ثم بدا له زيارة سيدي علي بن عليل، بعدما الوزير المشير قدم من سفره العطير، فعزم على السير وتوجه معه الأخ أحمد والولد الأرشد إسماعيل وإبراهيم الحادي كاون الأخ السلفيتي قدم من الشام. وأستأذن في سكني قرية حجة. ولما وصل إليه بمن معه سر وجمع الجمع في خلوة الجامع وتوجه الأخ إسماعيل منها إلى نابلس المحروسة.

وكان مراده الصحبة في الزيارة، ولكن خشي أن يسبقه القفل والرفاق فلا يمكن بعد سيرهم اللحاق، وأقام هناك أيامًا. ثم هيأ له الأخ السلفيتي زيارة الحرم العليلي، وبينا هو وصحبته جلوس على ربوة يسرحون الطرف في البر والبحر المحروس، إذ أعلام وإشارات في السهل بادية، وخيول تتجارى، فجاء الرفاق وأصطفوا للفرجة اصطفافًا، فقيل الشيخ محمد الخليلي قادم للزيارة من يافا. فنزل للقائه الأكثر فرحين بقدومه. فقال أنه لما مثل له أن فلان هناك أسرع للزيارة. فقال الشيخ «في الخطرة الأولى اجتمعنا بالشيخ نجم الدين الخيري وفي هذه بكم، فالحمد لله المنمي خيري».

ولما زار، دعانا إلى السير معه نحو يافا فتشوق إلى ذلك الأخ أحمد وامتنعت أنا أولًا ثم وافقته وقصدنا وبتنا لدى الشيخ ثم يقول «وعدت فوصلت النهر (نهر العوجا) ولم ندر مقطعه، ووقفت وقدمت الأخ السلفيتي، فكاد يغرق ثم هداني الله لقطعه من جانب البحر فرأيته سهلًا فحمدت ربي، وبعد ذلك رأينا فلكًا في البحر تجري بانحدار فخشينا لوجود «قرانصة» فيه (أي لصوص) أن تكون مملوءة بالافرنج، فصعدنا الجبل وبعد ما بعدت الفلك نزلنا الشط واجتمعنا بالإخوان الذين كانوا في مقام (سيدنا علي). وقضينا بعد ذلك اليوم حتى أتينا (كفر سابا) فزرنا سيدي بنيامين وسيدي سراقه وفي القاموس سراقه كيمامة، أبن كعب وأبن عمرو وأبن الحرث وأبن مالك المدلجي وأبن عمرو ذو النون صحابيون». وتوجه بعد ذلك إلى (جيوس) لدعوة فقير

مأنـوس. وكان قـد أضافهـم أولًا حـال الذهـاب في قريتـه وثناهـا أخـرًا حالـة الإيـاب لمـا عـاد إلى الشـام «ودخـل ذو الحجـة مـن عـام ١١٢٧ فحبـب لي وضـع رسـالة «تشـييد المكانـة لمـن حفـظ الأمانـة». «وثـاني يـوم أتينـا قريـة عـزون لأن وليمـة عـرس الأخ سـلامه القوصينـي بهـا تكـون». وقلـت لمـا نزلـت تحـت الزيتـون مواليًـا»:

أهـل الحمى والحيا الكل عزوني

لمـا تذللت في الأحزان عزوني

ومنـذ تفيأت في زيتون عزون

للخـان في الحال أضافوني وعزوني

وجاءنـا فيهـا عـلى هيئـة السـاعي رجـل ينتمـي وأخـبر أن بعـض الأوبـاش أشـاع خـبر أسر أهـاج القلـب الظمـي، وكـدر عيـش الأخـوان وضـاق ذرع من أحـب مـن أعيـان، حتـى أن الوزيـر وعـد أنـه يلـزم أهـل التحقـير بإعـادة الفقـير بعـزم كبـير، فقلـت الحمـد للـه العـلي الكبـير الـذي أراحنـا مـن الأتعـاب ورد الكـذاب. ثـم عـاد للقـدس. وزار النبـي شـموئيل مـع محمـد السـلفيتي وبـات ليلـة «وفي الصبـاح ورد خـبر قـدوم الوزيـر المعتـبر فجعـل العـود مـن غـير طريـق لئـلا يـراه فيلزمـه بالتعويـق» ولمـا وصـل الحـرم وجـد المقـال صحيحًـا.

وأرسـل الشـيخ محمـد الخليـلي رسـولًا ومعـه كتـاب يدعـوه إلى الزيـارة ملوحًـا أن جنـاب الوزيـر طلـب ذلـك وصرح بالعبـارة وأمـره بإحضـار أخوانـه. فعـاد مـع الاخ أحمـد ومحمـد السـلفيتي ونـور الديـن وإبراهيـم. وجلـس هـو وجماعتـه الاخ أحمـد والسـيد محمـد السـلفيتي ونـور الديـن وإبراهيـم الحـادي وشـم في المسـير إلى الزيـارة عـرف طنطـور الجنـدي، ولمـا أذن العشـاء اجلسـه لديـه وقربـه إليـه، وأمـره بالذكـر، وجلـس هـو فـوق المصفـة، وكان الوزيـر حـاضرًا المجلـس، فطـرب للإنشـاد، وأرسـل إلى محـب

الديـن النقيـب (خرجيـة) وأرسـل للأخـوان مثلهـا. فتفرقـت مـن أصلهـا. وكان يدعوهـم لتنـاول الـزاد لديـه. وسـأله عـن المنشـد وهـل يمكـن أن يقيـم في الحـرم ليعـين لـه مـا يحتـاج إليـه، فأعتـذر بـأن لـه والـدة كبـيرة ووالـد عاجـز الحركـة فـرضي بعـوده، وقـال هـما بركـة.

وخرجـوا إلى الشـيخ (بـادار، الشـيخ بـدر) وأقامـوا بجـواره في كـرم فسـيح. وكانـوا يـترددون عـلى الخليفـة (أي النبـي داود) والطـور. وتوجـه صحبـة الأخـوان إلى التكيـة الادهميـة، وأقـام الشـيخ أحمـد خليفـة عـلى الجماعـة، ولقنـه الاسـم الخامـس وأحـضر لـه السـجادة واجلسـه عليهـا.

وكان أكـرى مـع الحـاج محمـد بـن كريـم خـضر، وسـار معهـم السـلفيتي، وصحبهـم مصطفـى بـن عقبـه، وبـات في قريـة عـين يـبرود. فجاءهـم صديـق أسـمه عابـد العسـقلاني، وطلـب منـه وردًا للمسـافر. فكتبـه وأعطـى منـه نسـخة إلى القـدس ليدفعـه للشـيخ نـور الديـن الهـواري. وسـار إلى نابلـس المحروسـة، ونـزل عنـد مصطبـة التوتـة الدرويشـية. وجلـس في جامـع صغـير قريبًـا مـن الرفـاق ومـضى الأخ الخفـير والسـيد مصطفـى العقبـي. ولمـا بلـغ سـيفي آغـا الكلشـني نزولـه في المحلـة دعـاه إلى الدرويشـية وهيـأ لـه محلـه وبـات فيهـا، وزوده زادًا ومـشى معـه أخـر الليـل بالقنديـل إلى منـزل الرفـاق. وواصلـوا السـير إلى القريـة وودع الأخ السـلفيتي، وسـاروا يقطعـون عـلى طريـق بلاطـه، جاحـولا والخيـط وهـو طريـق وعـر تقطعـه أحيانًـا المتاولـة. فقطعـه بأمـان.

وأتى (الملاحـة) فنـزل لـدى الطاحونـة القريبـة، وهنـاك شرع في خطبتـه (تسـلية الأحـزان وتصليـة الأشـجان) وتكلـم عـلى سر الطاحـون وسـار إلى (حاصبيـة) وحـضر السـوق، وسرى مـع السـواق إلى كفـر قـوق، وكان الحـر أشـتد وبـات فيهـا وسـار لدمشـق وسـبق الأخ الحـاج إبراهيـم معلـمًا بقدومـه الأخ الشـيخ عبـد الكريـم. فنـزل داره بعـده السـلام والإكـرام وكان الحـر قـد أثـر فيـه. وكان قـد هـل هـلال رمضـان وتوجـه إلى القيمريـة ونـزل

دار والـده بالرضـاع الحـاج أحمـد والـد الحـاج إبراهيـم زوج والدتـه. وأقـام في القلعــة وورد عليــه الأحبــاب. وجــاء الولــد النبيــل إســماعيل مــسرورًا باجتماعـه. وكان ألبـس الولـد أحمـد كسـوة الطريـق للتـبرك فقـال الشـيخ عبـد الكريـم لا ترفعهـا يـا أخـي بعـد الآن.

وبعـد أيـام بـادر للخلـوة الجديـدة. ودخـل شـوال فأكمل مسـودة (التسـلية) وبيضهـا في جـمادي الأولى (١١٢٧) وأرسـلها إلى الشـيخ الأمجـد الشـيخ أحمـد في أول شـوال ١١٢٧ هـ .

وعـزم الشـيخ عبـد الكريـم عـلى الحـج نائبًـا عنـه فلـما وصـل (العـلا) وهـو قافـل مـن الحـج تـوفي ودفـن بهـا. واسـتقام بالشـام مـن (١١٢٨ هــ .) إلى مـضي الثلثـين مـن شـهر رجـب فتوجـه إلى حلـب المعمـورة. وسـمي الرحلـة (الحلـة الذهبيـة في الرحلـة الحلبيـة) وقبـل التوجـه، أرسـل لـلأخ الأمجـد الهـمام مكتوبًـا (زيتونـة وده نورهـا يتوقـد، وكوكـب سـعده مـشرق بالـود توقـد) وقصيـدة مطلعهـا:

إذا مـا الليل يا أحباب جنا

على المشـتاق بالاتواق جنا

رحلة الشيخ
مصطفى أسعد اللّقيمي

«سوانح الأنس برحلتي لوادي القدس»

نشأ الشيخ مصطفى أسعد اللقيمي في دمياط ونزل دمشق وولد سنة (١١٠٥ هـ - ١٦٩٣ م) وبعد أن تعلم، حج وأخذ عن علماء مكة والمدينة، وكان فرضيًا، ومن أشهر تآليفه هذه الرحلة وهي مخطوط نفيس اعددناه للطبع، وله ديوان شعر ومن قوله:

شط النوى باحبتي فجفوني

فتواصلت بالمرسلات جفوني

توفي (١١٧٨ هـ - ١٧٦٤ م) ودفن بدمشق. ورحلته هذه تتناول السفر من دمياط إلى صحراء سينا فغزة فالرملة فيافا فالقدس، وما جاورها، فدمشق فصيدا فقبرص فدمياط. دفعه الشوق لزيارة الأماكن المقدسة، فسار يوم الثلاثاء من ذي القعدة سنة (١١٤٣ هـ - ١٧٣٠ م) من ثغر دمياط بلده، بعد أن صلى الظهر، وقرأ الفاتحة لسيدي فاتح، وتوجه إلى البحيرة فركب من السفن أجراها ومر بسيدي شطا والقرشي والبغدادي والتفاحي والدابر، فوصل ثاني يوم فم أم مفرج، ومن هناك ركب متون الصافنات فنزل قلعة الطينة، قريب الغروب. وسرى بعد العشاء إلى «الرماني» فنزل بني هشيم، فوصل قرب قطية، عند الزوال وما زال يجد حتى وصل وقت الغروب إلى بئر العبد، فإذا ماؤها مر المذاق. وأستمر في سيره إلى أن وصل العريش، يوم الجمعة قرب المغرب. وبها مقام محمد الدمياطي.

ومنعهم أكابر العريش أن يحلوا بها خوفًا من الطاعون الذي كان متفشيًا في مصر حينئذ فنزل بظاهرها، وأقام في البستان إلى يوم السبت فسرى قاصدًا إلى خان يونس، فوصل وادي الخروبي آخر الليل وفي الصباح أكمل سيره فوصل رفح، وسط النهار، وهو أول أرض الشام. وبه بئر يقارب النيل في عذوبته. وبعد أن صلى الظهر سار لساعته فوصل خانيونس، وقت العصر وبات بقلعتها.

وعنـد الصبـاح قصـد غـزة فوافاهـا ضحـوة النهـار ويقـول عنهـا «وصلـت بصولجـان الفكـر في واديهـا عنـد مـا كشـفت نقابهـا وتجلـت للناظريـن في حلـل إعجابهـا فـإذا هـي بحبوحـة جنـان والحمائـم بـروض زهورهـا ألحـان» فنـزل في خانهـا (المعـروف بخـان الزيـت الآن وهـو يجـاور الجامـع الكبـير) «مـع بعـض الرفـاق، وهـو مـما بـه مـن عسـكر الدولـة في غايـة الإشـفاق». فلسـعته براغيـث الخـان وحرمتـه لذيـذ المنـام فتذكـر قـول بعضهـم:

عندي براغيث سـوء كلها اجتمعت

قـد بيتوني بأنواع من الغصص

يـروح هذا يجي هذا فاقنصه

فتنقـضي ليلتي في الصيد والقنص

كـما هجم عليـه الناموس «البعوض» وأزعجه بأنغامه.

ولما أصبـح الصبـاح أقبـل عليـه صديقـه السـيد محمـد المـكي وأقسـم عليـه بالنــزول في داره أو بقــصر ببســتان لــه بجــواره فامتثــل لأمــره، وذهــب معــه إلى بســتانه البديــع، ووفــد عليــه هنــاك الطبيــب الريــس الشــهاب أحمـد الريـس الحكيـم وهـو مـن حـذاق الأطبـاء فـسر بـه وشـفاه بقانـون لطفـه، (والسـيد أحمـد هـذا هـو أبـن السـيد محمـد الريـس الـذي ترجمـه المـرادي) فقـال: «أنـه أحـد المتفرديـن بعلـم الطـب، ولـه فيـه تآليـف، وقـد عـرب غايـة البيـان التـي بالتركيـة تـوفي ١١٣٠ هــ».

وزار بعـد ذلـك المشـاهد، منهـا الـدار قطنـي وعـلي بـن مـروان والشـيخ أبـو العـزم، وسـيدنا هاشـم، ومـكان مولـد الإمـام الشـافعي الـخ. ثـم الجامـع، ويقـول: (فرأيـت غالـب البـلاد خـراب مـن ظلـم الأمـراء وتحكـم لمـط الإعـراب فارتحـل عنهـا آسـفًا).

وسرى يـوم السـبت صباحًـا قاصـدًا خـان (سـدود) ومـا زال بـين نغـمات أطيــار، ونفحــات معطــرات الأزهــار، حتــى وصــل الخــان وقــت العــصر،

فبــادر إلى الصــلاة، وزيــارة ســيدي إبراهيــم المتبــولي الصــوفي تــوفي (٨٨٦ هــ). ولما ذهـب ثلثـا الليـل، قصـد رملـة فلسـطين، ومـر عـلى (يبنـى) وقـت الفجـر، وصـلى الصبـح، و يقـول: «وليـس المدفـون بهـا أبـو هريـرة

وإنمـا بعـض ولـده» ولاح لـه جامعهـا الأبيـض، فنـزل عنـد صديقه السـيد عبد اللـه نخلـة، فأكرمـه وأنزلـه بـداره، فبـدأ بزيـارة الجامـع الأبيـض، ومغـارة النبـي صالـح، ثـم يصـف المنـارة فيقـول: «وبالمسـجد المذكـور مغـارة عجيبـة ظريفـة في الشـكل غريبـة لم يـر السـواح مثلهـا، ولا حسـن صناعتهـا وشـكلها وكأنمـا فـرغ المعـمار الآن مـن بنائهـا مـع قـدم إنشـائها وهـي مـن بنـاء الملـك النـاصر بـن قـلاوون» (٧١٨ هــ) ثـم يذكـر مـا جـاء في الأنـس الجليـل (٩٠١ هــ) عنهـا فيقـول: «والرملـة واسـطة بلـد فلسـطين فإنها في أرض سـهلة وهــي كثــيرة الأشــجار والنخيــل وحولهــا كثــير مــن المــزارع والمغــارس وفيهــا أنــواع الفواكــه وظاهرهــا حســن المنظــر، وهــي مــن جملــة الثغــور، فــإن البحـر الملـح قريـب منهـا نحـو نصـف بريـد، مـن جهـة الغـرب، وكان سـور محيـط بهـا، وقلعـة واثنـا عـشر بابًـا. وكان حولهـا أربعـة آلاف ضيعـة وقـد هـدم السـلطان صـلاح الديـن قلعتهـا وقلعـة لـد في سـنة ٥٨٧ هـ و ١١٩١ م. وأمـا في عصرنـا أعنـي سـنة تسـعمائة هــ (١٤٩٤ م) فلـم يبـق أثـر لتلـك الأوصـاف والأسـوار لاسـتيلاء الافرنـج عليهـا نحـو مئـة سـنة، ولم يبـق مـن المدينـة ثلثهـا، ولا ربعهـا، وبنـي فيهـا مسـاجد مسـتجدة في زمـن السـلطان صـلاح الديـن النـاصر محمـد بـن قـلاوون وقـد صـار المسـجد القديـم بظاهـر المدينـة مـن جهـة الغـرب، وقـد بنـى فيـه الملـك النـاصر المذكـور منـارة مـن عجائـب الزمـان في الهيئـة والعلـو سـنة ٧١٨ هــ (١٣١٨ م) حـكى المسـافرون أنهـا مـن المفـردات ليـس لهـا نظـير ولم يبـق حـول الجامـع مـن الأبنيـة القديمـة سـوى حـارة بجـواره مـن جهـة الشـمال، حكـم القـرى، وإن المدينـة يومئـذ تقهقـرت ونقصـت جـدًا، وقـل سـاكنوها، ومـع ذلـك فهـي مقصـودة بالبيـع والـشراء، ولا تخلـو مـن بركـة في معيشـتها، كبركـة أرضهـا،

وسكانها من الأنبياء والصحابة والعلماء والأولياء». ثم يقول: «فهذا في زمنه سنة تسعمئة فما بالك الآن فلم يبق من تلك المحاسن إلا الأشجار وغالب أهلها تخطفتهم أيدي الأقطار لكن بركتها باقية على الدوام، يدرك ذلك الخاص والعام، فمن جملة من حل بناديها ودفن بروضة وأديها الذكي سيدنا الفضل بن العباس أبن عم النبي (صلعم) ورديفه في حجة الوداع وهو الذي غسل النبي حين وفاته. أستشهد في طاعون عمواس بالرملة، سنة ١٨ للهجرة (٦٣٩ م) وبشرقي المسجد قبر الإمام المحدث رحيم بن أبي سعيد، وقريب منه قبر الحافظ النسائي صاحب السنن ومقابله ضريح أبي حجلة الولي، وهناك مقام لسيدنا علي بن أبي طالب وبقربه مسجد به مقامًا السطوحي والشيخ أبي العون، وبقربه ضريح الشيخ العلمي، وفي المدينة عدة مزارات كالشيخ البطائحي والعدوي بحارة العنابة، والاشموني والقبي.»

وبعد أن قرأ لهم الفواتح صار يتأمل في تلك المدينة وشوارعها وينظر إلى قصورها واندراس مدارسها وجوامعها. وبات تلك الليلة عند صديقه السيد عبد الله مسرورًا، ولما أصبح الصباح سار برفقة أعزاء إلى اسكلة يافا ضحوة النهار. فتلقاه شريكه وصديقه سيدي أحمد النجار لقاء حسنًا. وذلك في أوان فصل الربيع.

ويقول الشيخ «ويافا بلدة ظريفة على ساحل البحر وهي اسكلة للرملة والقدس ونابلس ونواحيها وبظاهرها بساتين ذات أنهار وأشجار وفواكه وأزهار فما زلت أردد الطرف في رياضها الأنيقة وأروح الروح بلثم ثغور زهورها العبيقة إلى أن صليت الجمعة بجامعها اللطيف وورد الأذن بالمسير إلى القدس الشريف». فعزم على السير وقصد الرملة مع رفيقين فامتطيا الخيل وساروا فمروا عن حيدرة بقرية يازور، ولقمان بصرفند، فوصل الرملة قبيل الغروب، ونزل عند السيد عبد الله نخله، والمسافة بين يافا والرملة أربع ساعات بسير الصافنات الجياد.

وامتطوا الخيول في الصباح، وساروا يقطعون تلك المهامة الصعبة المرمية، إلى أن وصلوا قرية (قلونية) وصعد العقبة فلاحت له بيت المقدس فوافاها قبيل العصر. فقرأ الفاتحة عند الباب «واستأذن بالدخول من بها من الاوتاد والإنجاب فإن ذلك من حسن الأدب». وللمدينة سور محكم البنيان، بديع الشكل، في الصناعة والإتقان، له ستة أبواب منيعة غريبة، في الوضع بديعة، وهي باب الأسباط، وباب الساهرة، وباب العمود، وباب الخليل، وباب داود، وباب المغاربة (وهناك في الجهة الشمالية باب يعرف بباب الجديد فتح في القرن التاسع عشر).

ثم دخل المدينة من باب الخليل، فنزل في دار السيد مصطفى البكري الصديقي، ثم ذهب لزيارة الحرم، وثاني يوم ذهب لزيارة شيخ مشايخ الإسلام وعمدة العلماء الإعلام مولانا الشيخ محمد الخليلي عمدة الائمة الشافعية فقابله بوجه السرور.

ثم فرض له الأستاذ الصديقي خلوة سنية، على طرف سطح الصخرة، مقابلة للمدرسة السلطانية، وابتدأ بالزيارة، فزار البراق واصطبل سليمان ثم سور المسجد واطل على وادي جهنم فإذا به مقبرة طائفة من اليهود، ثم توجه إلى باب الرحمة، وبعد أن يصف المسجد بما لا يخرج عن حالته يقول «وبالمسجد عدة أشجار من زيتون وغيره».

ثم توجه لزيارة القلعة، وارتقى إلى أعلاها، عند شباك، كأنما هو لصيد النسيم شباك. ثم ذهب لزيارة طورزيتا، فخرج من باب الأسباط، فمر بمقبرة باب الرحمة، وزار الصحابيين شداد بن أوس وعبادة بن الصامت، ثم مر بالكنيسة الجثمانية، فوقف ببابها، وقرأ ما تيسر ثم صعد إلى الجبل. ويقول أن صفية زوج النبي قدمت القدس، فصلت وصعدت طورزيتا، وقامت على طرف الجبل وقالت «من هنا يتفرق الناس يوم القيامة إلى الجنة أو النار». وبجانب مصعد عيسى زاوية بأسفلها ضريح الشيخ العلمي (شمس الدين محمد العلمي القطب

الزاهـد) وزوجتـه، وقريـب منـه مـكان بـه قـبر رابعـة العدويـة، ومـن وصاياهـا «اكتمـوا حسـناتكم كـما تكتمـوا سـيئاتكم». أوردهـا السـهروردي.

وبالجبـل جماعـة مـن الشـهداء بقبـة عاليـة وبـه قـبر الصحـابي سـلمان الفـارسي. ثـم توجـه إلى قريـة العيزاريـة، وزار بهـا قـبر نبـي اللـه «العزيـر». ودعاهـم للنزهـة رئيـس خطبـاء الأقـصى الشـيخ نـور اللـه الجماعـي، ويقـول وتوجهنـا معـه إلى بسـتان نفحـت أزهـاره، وخطبـت عـلى منابـر ايكـه أطيـاره» (نرجـح انـه قـصر الخطيـب بـوادي الجـوز).

وابتـدأ بزيـارة الخليـل فـزار مقامـات الخليـل إبراهيـم، ثـم زوجتـه ثـم أولاده، وزوجاتهـم، وسـارع لزيـارة سـيدنا لـوط بقريـة كفـر بريـك وهـي بنـي نعيـم الآن، ثـم توجـه لمسـجد اليقـين، وهـو عـلى فرسـخ مـن حـبرون عـلى جبـل مـشرف عـلى بحـيرة زعـر، وبظاهـر المسـجد مغـارة بهـا قـبر فاطمـة بنـت الحسـين. وقـد أكرمهـم الشـيخ صبيـح التميمـي الـداري. وهـو خـادم سـيدنا لـوط. ثـم رجـع إلى المسـجد الإبراهيمـي وصـلى. وقصـد بعـد الصـلاة زيـارة المشـاهد، فـزار الـولي أبـن رفاعـة والشـيخ الجعـبري والشـيخ عـلي البـكا والشـهداء، وجلـس تحـت شـجرة البطمـة (هـي شـجرة بلـوط) وقيـل لهـا أربعـة آلاف سـنة مـن الغـراس.

وزار بقربهـا سـفح جبـل لقـون. ومـر عـلى «عـين سـارة وعـين قشـقلة» وشرب مـن مائهـا المعـين. وبعـد الصـلاة بالحـرم دعاهـم الشـيخ سـلمان الـزر واحـد خـدام المقـام، وسـامرهم تلـك الليلـة.

ولما هـزم الصبـح جيـش الظـلام نـادى أمـير الركـب أسرعـوا بالخيـل، فـودع المقـام وسـار مسرعًـا للقـدس، فاقبـل عـلى سـيدنا يونـس بحلحـول، والعيـص بسـعير، ومتـى ببيـت أمـر، فقـرأ مـا تيـسر، ولم يتمكـن مـن الولـوج إلى رحابهـم، خوفًـا مـن قطـاع الطريـق الفئـة الباغيـة.

وقـد بنـى المسـجد بقريـة حلحـول الملـك المعظـم عيـسى (أبـن الملـك العـادل أخـي صـلاح الديـن وواقـف المدرسـة المعظميـة والنحويـة ومرمـم الغزاليـة

بالقـدس) ثـم سـار فوصـل بيـت لحـم. فنـزل ببيـت الضيافـة المعـد للخـاص والعـام فأسرعـوا بإحضـار الفاكهـة والطعـام، وبعـد الانتبـاه مـن النـوم وصلاة الظهـر، توجـه لمحـل مولـد عيـسى عليـه السـلام ومحـل النخلـة. ثـم قصـد القـدس، فمـر بضريـح راحيـل، أم يوسـف قريبًـا مـن بيـت جاليـة (بيـت جـالا) عـلى قارعـة الطريـق فقـرأ مـا تيـسر.

ولمـا وصـل القـدس زار خليفتـه داود وأجتمـع (بخدمـة ذلـك الجنـاب فـإذا هـم مـن المـوالي السـادة الإنجـاب).

ثـم انتظـم في سـلك الطريقـة الخلوتيـة ولقنـه الأسـتاذ الأعظـم (أي البكـري) الاسـم الأول وقـت الغـروب، عنـد بـاب الرحمـة، وأمـره بالاسـتعداد لدخـول الخلـوة، فادخلـه الخلـوة بمنزلـه ليلـة الثلاثـاء وقـت العشـاء فمكـث فيهـا إلى غـروب يـوم الخميـس.

وانقـضى رمضـان، ففـي ثـاني يـوم العيـد، سـار إلى بـئر أيـوب، وعـين سـلوان، فـشرب مـن مائـه المعـين، واغتسـل في عـين سـلوان، ثـم سـار فمـر عـلى قـبري (زكريـا ويحيـى) بذيـل جبـل الطـور بقبتـين بديعتـي الأحـكام المقـول فيهـا طرطـور فرعـون وكوفيـة زوجتـه كـما هـو مشـهور.

وزار الزاويـة الادهميـة، البديعـة الإتقـان، وقـال أنهـا مـن العجائـب، وورد ضريـح الشـيخ جـراح وقـرأ الفاتحـة لسـعد وسـعيد، ودخـل مغـارة الكتـان (مغـارة سـيدنا سـليمان).

وزار بعـد ذلـك مـع أصحابـه مقـبرة مامـلا (مأمـن اللـه) وفي الحديـث (مـن دفـن فيهـا فكأنمـا دفـن في السـماء). فـزار فيهـا الشـيخ عبـد اللـه القـرشي (٥٩٩ هــ) وشـهاب الديـن أبـن أرسـلان شـارح سـنن أبي داود (٨٤٤ هــ) وأبـن الهائـم شـيخ العلـوم الرياضيـة (٨١٥ هــ)، و برهـان الديـن بـن جماعـة (٨٧٢ هــ). والشـيخ أحمـد الدجـاني القطـب (٩٦٣ هــ) والكـمال بن أبي شريـف (٩٠٦ هــ) الـخ.

ثـم عـزم عـلى زيـارة السـيد الكليـم فخـرج بعـد الصـلاة، ووصـل عنـد الغـروب مـع بعـض رفاقـه، وسـار في جبـال وأوديـة وعقبـات ويقـول «فمـر غنـا الخـد باعتابـه واكتحلنـا بعبـير ذلـك الـثرى». ثـم زار مقـام الراعـي ثـم عـاد فـزار نبـي اللـه العـازر.

ودعـاه الشـيخ محمـد الخليـلي لزيـارة أبي ثـور المجاهـد، فوصـل إلى قريتـه (هـي محلـة ديـر أبي طـور أو الطـوري الآن بالقـدس) ثـم توجـه إلى أرض البقعـة (هـي الآن ثكنـة الجنـود الإنكليـز المعروفـة بتلفـيرا) وكان للشـيخ قـصر هنـاك. وأقـام يومـه يجتـلي مـن ذلـك الـروض ويقـول «وهـذا الـوادي هـو الـذي رأى فيـه النبـي (صلعـم) ليلـة المعـراج. وكان بهـذا الـوادي قصـور وبسـاتين محتهـا تـوالي الأيـام وتعاقـب السـنين». وذهـب ليبيـت في مقـام النبـي داود. وبعـد ذلـك دعـاه الأسـتاذ البكـري إلى بـاب الرحمـة ولقنـه الاسـم الثـاني للسـادة الخلوتيـة ثـم أمـره بالتـزام الخلـوة فدخلهـا ليلـة الاثنـين وطلـع ليلـة الخميـس.

وأجتمـع بالقـدس بالشـيخ مصطفـى البكـري الصديقـي أسـتاذه الأعظـم والشـيخ محمـد الخليـلي رئيـس الشـافعية وقـد أجـازه، ويقـول عنـه (وحـضرة مولانـا الشـيخ المذكـور فضلـه في جميـع الأقطـار مشـهور، وهـو مقصـد لـذوي الحاجـات، وموصـوف بإجابـة الدعـوات. والشـيخ أحمـد، الموقـت بحـرم القـدس المالـكي، وكان يباحثـه ويرجـع إليـه، ومنهـم الشـيخ عـلي الداغسـتاني فقـد طالـع عليـه الرسـالة القشـيرية بالمسـجد المقـدس بالمدرسـة السـلطانية وهـو مـن المتصوفـين، ومنهـم أبـو بكـر العلمـي مفتـي الحنفيـة بالقـدس، ومنهـم العابـد الشـيخ عبـد المعطـي الشـافعي المـلازم للمسـجد بالمدرسـة النحويـة).

(أسسـها الملـك المعظـم عيـسى بـن العـادل سـنة ٦١٤ هــ). ويقـول الشـيخ (ولم يجتمـع بأحـد مـن أهـل القـدس إلا ببعـض أفـراد مـن الذيـن لهـم

صـدق محبـة لنـا وحسـن وداد فـإن في العزلـة عـز دائـم ونعمـة وهـي والصمـت مـن تمـام الحكمـة).

وعـزم أسـتاذه البكـري الصديقـي عـلى السـفر إلى ناحيـة نابلـس الفيحـاء، وواديهـا للزيـارة فرافقـه جماعـة مـن المسترشـدين، وركبـوا الخيـل يؤمـون مقـام النبـي صموئيـل (اشـمويل) وهـو بحمـى قريـة (الرامة). ويقول الشـيخ «وكان هـذا المقـام تحـت اليهـود يتعبـدون بـه، ويأتـون إليـه بالنـذورات مـن الحـلي والملابـس والفـرش ويضعونـه في المغـارة التـي فيهـا قـبر النبـي (اشـماويل) عليـه السـلام ثـم يحرقـون تلـك الأمتعـة تقربًـا بزعمهـم في هـذا المقـام، إلى أن ظهـر أسـتاذنا ومولانـا الشـيخ محمـد الخليـلي بالقـدس المحـترم ونفـذت كلمتـه في تلـك النواحـي، حتـى صـار أشـهر مـن نـار عـلى علـم، فأمـده الفيـض الإلهـي الربـاني واسـتنقذه مـن أيديهـم بخـط شريـف سـلطاني، وسـد بـاب المغـارة، وبنـى منـارة عليـه، وأقـام شـعائر المسـجد، ومنـع اليهـود عنـه بالكليـة، فصـاروا لا يأتـون إليـه خفيـة، وهـم خائفـون، ويقفـون خـارج المسـجد، وأمـا دخولـه فـلا يسـتطيعون. فجـزاه اللـه تعـالى أحسـن الجـزاء وعاملـه بالإحسـان وبـوأه أعـلى فراديـس الجنـان؛ فكـم لـه مـن مآثـر وخدمـة وحسـن قيـام بأضرحـة الأنبيـاء الذيـن بتلـك النواحـي. «تـوفي الشـيخ محمـد الخليـلي سـنة ١١٤٧ هــ».

وصعـد إلى العليـة واضطجـع بجبتـه إلى الأرض، فـبرد واورث داء القولنـج، ثـم سـار وهـو يتـألم، إلى (كفـر قريـع) فاكرموهـم بالفاكهـة والطعـام، ونـام وأسرعـوا إلى (ديـر قديـس) «فتلقـاه أهلهـا بوجـه طلـق وثغـر ضاحـك» ويضيـف الشـيخ فيقـول: «مـع أنهـم همـج وقطـاع طريـق تلـك المسـالك وقضـوا الليلـة عندهـم، فاتحفوهـم بوقائعهـم الحربيـة». ثـم سـاروا إلى قريـة (سـبطارة) ومـروا عـن قريـة اليهوديـة، فوصلـوا سـبطارة، فاكرمهـم أهلهـا، ومنهـا إلى يـازور. فنزلـوا في جامعهـا الجليـل. ويقـول الشـيخ وفي الصبـاح «ورد مولانـا الشـيخ الخليـلي وصحبتـه جماعـة قاصـدًا مدينـة يافـا

لإتمام عـمارة مسـجدها الجديـد فعقـدوا مجلـس ذكـر». وفي الصباح أقبـل عليهـم شريكـه سـيدي أحمـد النجـار. فـزار الصحـابي سـلمه بـن الاكـوع، وأشـتد عليـه الألم فاسـتأذن الأسـتاذ الصديقـي بالذهـاب إلى مينـاء يافـا. ومـر عـلى الـولي الشـيخ مـراد وأشـار عليـه البعـض بدخـول الحـمام وكان قـد أشـتد عليـه الألم فدخلـه ولكنـه لم يسـتفد منـه.

ومكـث في يافـا مريضًـا فعـزم الأسـتاذ الصديقـي عـلى زيـارة عـلي بـن عليـل، فرافقـه وأشـتدت عليـه الحمـى فلجـأ إلى المقـام راجيًـا أمـداده. ويقـول «ولعـلي بـن عليـل كل سـنة موسـم زمـن الصيـف يقصـده النـاس مـن البـلاد البعيـدة والقريبـة ويجتمـع هنـاك خلـق كثـير لا يحصيهـم إلا اللـه وينفقـون الأمـوال الجزيلـة، ويقـرأ عنـده المـدد».

وورد عليهـم في ذلـك المقـام الشـيخ حسـن مقلـد (الجيـوسي) شـيخ بنـي صعـب وكان قـد تنـزل عـن المشـيخة لأخيـه باختيـار وحسـن طويـة، وسـلك طريـق السـادة الخلوتيـة، عـلى يـد الأسـتاذ الصديقـي. كـما ورد عليهـم الشـيخ أحمـد السـفاريني الحنبـلي وهـو متقـدم عنـد أهـل تلـك الناحيـة. وفي قومـه مهيـب.

ثـم عـادوا فوصلـوا كفـر سـابا، ثـم حبلـة، وكاد الشـيخ يزهـق روحـه، فنـزل تجـاه البلـد تحـت الزيتـون، ثـم سـاروا فوصلـوا خربـة قبيـل الغـروب، فنـزل بزاويـة هنـاك، وبـات تلـك الليلـة، محمومًـا فـورد عليـه الشـيخ غنـام، وكان يعرفـه مـن مجاورتـه معـه في الجامـع الأزهـر.

وسـار بعـد ذلـك إلى قريـة كـور، فنـزل بجامعهـا، ولم يجـب دعـوة الشـيخ حسـن، وقـال المسـجد أولى بالغريـب، وكان مصيبًـا لمـا بـه مـن المـرض. فقـد أصابـه إغـماء، وكان يـصرخ وينـوح قبـل ذلـك مـن الألم وأسـتأذن أسـتاذه بالمسـير، أمـا إلى يافـا، أو نابلـس، فـإذن لـه بالمسـير إلى الثانيـة لطيـب هوائهـا، فسـار مـع رفيقـين أحدهـما الشـيخ يوسـف بـن حمـدان الطويـل، والشـيخ أبـو بكـر طبيلـة، ولم يكـن يسـتطيع الاسـتقرار عـلى مـتن الجـواد.

وزاد سقمه حتى وصل نابلس فنزل عند صديقه السيد محمد أمين الدين في علية عالية.

وكان وهو بالقدس سمع بالشيخ عبد الرحمن السمان؛ يوم وما له من الكرامات، فهم للاجتماع به والتوجه للشام، ومن حسن الإتفاق حضر الشيخ لنابلس يوم وصوله. فأخبروه بدائه العضال، فحضر للحال ووضع يده على صدره وقال «أبشر بالسلامة فإن لي بذلك دلالة وعلامة» ثم قال كم تريد أن تقيم بسقامك؟ فقلت «ولا لحظة». فقال أحمل حملتك وأرجو من الله أن يزيل علتك بشرط أن تدفع لي شيئًا من الذهب» فقلت «نعم إذا المرض ذهب» فقال لي حضرة الأستاذ إدفع له ما طلب، وأنا على الضمان. فدفعت له في الحال، فقرأ لي الفاتحة، وقال يوم الجمعة يذهب عنك المرض، وتوجه بعد ذلك للقدس. وتركه غارقًا في لجة المرض. وكاد يداخله الإنكار لكرامة الشيخ السمان فبات ليلته. وحلم أن السيدة مريم ابنة عمران بشرته بالشفاء، ولما لاح الصبح شعر بتحسن في صحته فزالت الحمى، أما القولنج فلازمه ولم يستطع أن يتنفس. وعاد الشيخ السمان من القدس فوجده يعاني القولنج «فقال باسم الله ذهب الألم وحصل للعليل شفاء فذهب القولنج». وصار يذهب إلى الرياض، ويتلذذ بسماع الأطيار، ويتردد على التكية الدرويشية ذات الأزهار والكروم العروشية.

ثم زار مشاهد نابلس، منها مشهد أولاد يعقوب، وضريح بشر الحافي، ثم الشيخ غانم (٧٧٠ هـ)، وله به صلة من جهة أجداده لوالده، ثم ذهب إلى قرية بلاطة، وبها مشهد على قارعة الطريق، يقال أن به يوسف الصديق، وهو الذي تعتقده طائفة السامرة، ويقول الشيخ أن بعض الأخيار أخبروه بأن هذه الطائفة لا يوجدون في غير هذه الديار، وأنهم لا يزيدون على سبعين، وإن عدتهم في نابلس لا تتجاوز الأربعين.

ثـم ذهـب إلى (الخـضرة) وهـو «محـل بـه بسـتان يانـع الأزهـار رحـب الجنبـات كثـير الثـمار ومـن بديـع حسـنه النفيـس، أن بداخلـه مسـجد انيسـا، وبجانبـه محـل بـه خلـوة، يقـال لهـا خلـوة المحـزون. كانـت مجلـس يعقـوب.»

وذهـب مـع بعـض الأخـوان إلى حديقـة بهيجـة ورأى فيهـا شـجرة تحمـل أكـر الذهـب، فسـأل عنهـا فقيـل هـي شـجرة أتـرج فقـدم لـه واحـدة (والأتـرج مـن فصيلـة الليمـون «البرتقال»).(وقـد دلـت الحفريـات في قـصر هشـام عـلى وجـود (الليمـون) البرتقـال في هـذه البـلاد منـذ القـرن الثـاني للهجـرة).

ومـن الذيـن أنـشرح صـدر الشـيخ بلقائهـم في نابلـس الملا (المـولى) الزاهـد عبـاس تلميـذ الزاهـد إليـاس. والشـيخ يمـدح نابلـس وهواءهـا وأهلهـا وكرمهـم.

وأشـتاق الشـيخ بعـد ذلـك إلى الرجـوع إلى الشـام، فخـرج عـلى الخيـل مـع الشـيخ عبـد الرحمـن السـمان، والمنـلا (المـولى) عبـاس، وخـرج الأخـوان لوداعهـم، فوصلـوا جنـين، ونزلـوا في خانهـا المعـد للمسـافرين، وبجانبـه مسـجد كسـاه الجـمال جلبابـا، تـرى الـروض محيطًـا بجوانبـه والمـاء جاريًـا في مشـارق الخـان ومغاربـه، فأجتمـع فيهـا بالـولي الشـيخ أحمـد قبونـه، وسـاروا إلى عيـون التجـار فوصلـوا إلى خانهـا ونزلـوا فيـه وبداخلـه مسـجد سـامي البنـاء آل إلى الـزوال والفنـاء. ولمـا أشرقـت الشـمس قصـد خـان المنيـة، ونـزل عـلى شـاطىء بحـيرة طبريـا. وقـضى النهـار هنـاك. ولمـا ظهـر الليـل امتطـوا الخيـول فوصلـوا قريـة عـين نعـران فـإذا هـي خاويـة، فاسـتراحوا وإذا بأمـير الركـب يتهيـأ للمسـير، فصـاروا في دوحـة مغضـة بالأشـجار إلى أن وصلـوا القنيطـرة. ونزلـوا بخانهـا الخـراب ولمـا أضـاء القمـر، قصـدوا قريـة سمسـع، فوصلوهـا وقـت الـزوال، وصـلى الشـيخ في مسـجدها

النفيس، وبها تكية بجانب المسجد، وتجاهها فسقية ماء وبمحاذاته نهر الأعوج، فجلس الشيخ على شاطئ النهر، ولاحت له دمشق ورياضها الغناء، فأشرف على الثنية، ووصل دمشق في الصباح، فسار إلى أن وصل المدرسة (الشميصاتية) ونزل بخلوة فيها. ثم توجه للجامع الأموي، وزار المقامات، ويقول أن الوليد بن عبد الملك هو الذي بنى هذا الجامع سنة ست وسبعين، وأتم بناءه في عشر سنين. ثم زار الصحابة والتابعين والأولياء فزار خولة الصحابية، ورابعة الشامية، والشيخ رسلان، ثم أبن دقيق العيد، فالسلطان صلاح الدين، فنور الدين الشهيد. ثم إلى مقبرة باب الصغير فزار بلال، ثم معاوية، ثم أم سلمة وحبيبة، ثم ميمونة، ومر بضريح صهيب الرومي الصحابي، ثم الشيخ مسعود ومحمد الدباس، والشيخ السروجي والملا إلياس. ثم ضريح السيدة رقية، والاعمش أبو شامه عبد الرحمن بن أبي بكر، ثم جامع أبن منجق المسمى بجامع السادات، وفيه ضريح سبعة من الصحابة، ثم قبيصة العبسي، وكرام بن حبان وحجر بن عدي الكندي، ومحرز بن شهاب التميمي، وضيف بن يشكر التميمي، وتمام أبن عبد الله الزبيدي، وشريك بن شداد الحضرمي.

ثم زار من التابعين أبي بن كعب، والشيخ الحصني؛ والشيخ العسالي، وقصد الصالحية، فمر على محل الشهداء وفيه الصحابيون حرملة بن وائل، ومسعود بن جابر، ومساعد، ثم قصد ضريح محي الدين بن عربي، فدعا لهم جميعًا ثم مولانا الشيخ عبد الغني النابلسي، وتأسف لأنه لم يدركه قبل وفاته، وطالما كان يعلل النفس بلقائه.

ثم زار قاسيون، وما به من المشاهد، مغارة الدم أو مغارة الأربعين. ثم قبر الست، وزار الشيخ مدرك، وانعطف إلى قرية (المنيحة)، لزيارة ضريح سعد بن عبادة ثم المرجة، وفيها أبن عساكر، وأبن الصلاح، فالمزة لزيارة سيدنا دحية. فالقلعة لزيارة قبر أبي الدرداء الصحابي.

وقصد دار الحديث، التي كان يدرس فيها الإمام النووي وبعد أن زار معاهد دمشق ومدارسها وغياضها، وتمتع بمناظرها، وارتوى من مائها، وذاق فواكهها، تحركت به الخواطر للرجوع، فبعد أن ودعه الأصحاب توجه الى قرية (ضومر) ثم (الديماس)، ثم (خان الظهر الأحمر)، فنزل بحمام لطيف بجانب الخان، مستكمل العمارة، إلا أنه معطل وكان معه صديق أسمه المولى أبو بكر الصديق «فأقسم على الشيخ أن يدعوه بالسيد حسن لكونه في أودية المتاولة» ثم سار فوصل (خان حاجيا) فنزل بجانب الخان على شاطئ النهر وأستمر في سيره فوصل (النباطية) وقت الزوال، ومر عن نهر الخردلة. ونزل على شاطئه ونام تلك الليلة، وفي الصباح زار سوق البلدة، وكان ذلك اليوم مقصودًا، تباع به المتاجر، ثم وصل صيدا عند الفجر فنزل عند البوابة. إلى أن لاح الفجر، ففتح له الباب أي باب مدينة صيدا. وحضر جماعة من أصحابه وكل دعاه فلبي دعوة صديقه السيد بكري فحصه بعلية، وحضر لعنده الشيخ عبد الغني الحنفي مفتي صيدا، وبينهما محبة وصداقة ومجاورة بالأزهر عام (١١٢٧ هـ) ثم يصف رياض صيدا ومتنزهًا يقال له (المعصف) فصعد إلى قصر هناك. ثم ذهب لرياض السبع عيون وورد في هذه الأثناء من بيروت عزيزه السيد أحمد حندس القصار إذ بينهما علاقة مصاهرة ونسب، وعزم على الشيخ التوجه معه، إلى بيروت لزيارة الاوزاعي، فاعتذر لخوفه بسفر (الغليون) أي المركب، وأن يمتد به الوقت إلى شهر كانون وتوجه مع المفتي إلى الجزيرة بقرب صيدا وفيها القلعة الحصينة، وأجتمع بجناب الحاج سليمان باشا أبن العظم، الذي كان مقيمًا بتلك القلعة بأمر من مولانا السلطان، لسعاية خائن، وهو في رأيه بريء، ثم دعي للوزير، وأستأذن بالمسير، فودعه وبعد ذلك بقليل حضر (قبجي) من دار الخلافة يحمل رسالة لجناب الوزير بالعفو عنه، وتوليته محافظة طرابلس الشام، كما كان في سالف الأيام.

وحـضر لصيـدا غليـون البيليـك المعـروف بالريالـة؛ المشـحون بالرجـال، والمحصـن بالعـدة والآلـة، فاشـترى مـا هـو مطلـوب للمسـافر، ووافى سـاحل البحـر قـرب الغـروب، فـرأى الغليـون قـد نـشر مطـوى الـشراع، وأسرع في البحـر، فحصـل لـه غـم شـديد، فأشـار عليـه بعـض الأخـوان بلحاقـه فنـزل في سـفين صغـير، وكان البحـر هائجًـا فخـاف الشـيخ، فاسـتنجد باللـه، وإذا بالغليـون، يظهـر لهـم فأسرعـوا نحـوه، وتمسـكوا بأسـبابه، وصعـدوا ودخلـوا مـن أحـد أبوابـه، فتلقـاه رئيسـه محمـد قبطـان المغـربي، هاشًـا باشًـا ورحـب بـه. ويقـول الشـيخ أن للقبطـان مشـاركة في الفنـون لا سـيما الرياضيـة، فجـرت بينهـما مباحثـة في الأوفـاق خصوصًـا المخمـس، وأطلعـه عـلى وفـق مخمـس، ومـا زالـوا يسـتقبلون الليـل والنهـار إلى أن أقبلـوا عـلى جزيـرة قـبرص. واسـتقبلوا تجـاه أحـد ميناهـا الموصوفـة، ويقـول إنـه بلغـه «أنهـا حـوت مـن المنكـرات مـن بيـع الخمـر جهـرًا وكـثرة النسـاء المتبرجـات» فانفـت نفـس الشـيخ مـن الطلـوع إليهـا. ثـم أقلـع الغليـون نحـو دميـاط، فوصلهـا سـالمًا وأنـشرح صـدر الشـيخ وقـرت عينـه، برؤيـة النيـل فوصـل إلى منزلـه والحمـد اللـه.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة

عماد عبدالله حمدان

رقمنة

مشروع النشر الرقمي